والبنين . وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس تخبره بموت ابنيه في حرب لهم مع قبيلة كوریاس و بنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب فتجلد الشيخ على موت ابنيه وغضب من فرار ولده الثالث . فقالت له المرأة « ماذا تريد ان يفعل وهو وحده مع ثلاثة من أعدائه » فأجابها الشيخ « أريد ان يموت » . ومن أئمة الادب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (١٦٤٩ — ١٦٩٩) وكان معاصراً لقورنيل ورقيباً له . نظم رواية اندروماخه ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لاحد شعراء اليونان الاقدمين ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم رواية « استير » ورواية « أتالي » التي قال فيها فولتير بأنها أحسن ما ألفه العقل البشري وسموا هذا النوع من الروايات الفاجعة التاريخية « تراجيدي » . ومن مشاهير أدبائهم المتقدمين بوالو الشاعر الهجاء مؤلف الهزليات وصاحب المذهب في فن الادب . وموليير مؤلف المضحكات المسماة كوميدي وفنلون مؤلف تيلماك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بألفاظ لغوية وعبارة عويصة وترجمهُ احمد وفيق باشا بألفاظ سهلة . ولافونتين مؤلف الحكايات المنظومة على السنة الحيوانات وكانت المدارس الابتدائية تعول عليها في تدريس اللغة الفرنساوية وتحفظها للاطفال وأما اليوم فقلت الرغبة فيها . ثم ظهر مونتسكيو مؤلف (اسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم) و (روح القوانين) و (الرسائل العجمية) . وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي وفولتير الشهير الذي لم يدع بابا من أبواب الكتابة وفنون الشعر والانشاء الا طرقهُ . وديدرو صاحب الانسكلوبيديا وجان جاك روسو الذي هيج الافكار بمؤلفاته وهيأ حدوث الانقلاب الكبير وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفيرجيني وغيرها من القصص والسياحات

١٧ الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في أدب الافرنج

وما أخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل لسان — كما لايخفى — هو مجموع ماحصلت الاجادة في تأليفه

بذلك اللسان من فني المنظوم والمنثور . فمن أمعن النظر في أدب اللسان العربي وجد فيه طرقاً كثيرة ومذاهب شتى للكلام ورأى فريقاً من الذين احرزوا قصب السبق في أدب العرب يتوخى حفظ الالفاظ وتصنيعها وفريقاً آخر يختار ضبط المعاني وترتيبها . وعلم ان لكل واحد من أئمة البلاغة وأمراء الفصاحة منهاجاً معروفاً وطريقة مألوفة . فلو راجعنا البصر في رسائلهم المنثورة وتأملنا طرز انشائها لتبين لنا ان منهم من سلك طريقة الاصل او طريقة السجع أو طريقة الجاحظ امام الادب ومنهم من جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة . ثم لو أعدنا النظر ثانية في نظم أشعارهم لظهر لنا ان منهم من نسج على منوال شعر الجاهلية ولم يخرج عن الاساليب التي راعوها ومنهم من لم يجر على أساليب العرب المتقدمين كالمتنبي والمعري بل اتخذ كل منهما منوالاً خاصاً لنسج كلامه وأوجد قالباً جديداً لبناء شعره فأصبح في الادب اماماً يقتدى به . ثم اذا بحثنا في مؤلفات اولئك الائمة باعتبار آخر رأينا منهم من أطلق العنان للمخيلة الشعرية فأتى بالمعجز من آيات البيان ومنهم من استغرق في الحب استغراق ابن الفارض وتجليه . واذا وصفوا الامكنة والاشخاص أو المواد والمعاني منهم من يصور لك الموصوف على حقيقته بلا خلف فيه ومنهم من يجعل وصفه يربو على الموصوف ويتعداه أو يقصر عنه . ثم اذا استقصينا البحث نجد طائفة من أمراء البلاغة قد تركوا لغة مضر وما فيها من الاعراب ونظموا أشعارهم بلسان الحضر وهي اللغة الدارجة في أمصارهم لان البلاغة لا تختص بلسان مضر بل توجد فيه وفي لسان الحضر وفي غيرهما من الالسن الاعجمية . ونجد منهم ايضاً طائفة اخرى في الاندلس وغيرها خرجوا عن اوزان العروض المعروف عند العرب الى اعاريض مختلفة ومقاطيع متفاوتة . الى غير ذلك مما هو مفصل في مواضعه ومعلوم عند اربابه سيما بعد طبع كتب الباقلاني والجرجاني وغيرهما من الائمة الواضعين لفن الانتقاد الادبي

فالامم الاوروبية على اختلاف قومياتهم وتفرق لغاتهم ظلوا لاواخر القرن الحادي عشر للميلاد محرومين من الادب وفنونه ولم يكن فيهم الا أفراد من القسوس

والاساقفة يحفظون في الاديرة شعر فرجيل اللاتيني ولا يفهمون مغزاه كما يحفظ مشايخ الاعاجم في زماننا شعر المتنبي والمعلقات . ففي أوائل القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد أخذت الافكار تتبادل بين المسلمين و بين أمم أوروبا من الاسبانيين والطليان والافرنج ودامت الصلات لا تنقطع بين الفريقين المتحاربين لا في الحرب — بواسطة الاسرى والسفراء — ولا في السلم بسبب الاخذ والعطاء . وكان الارسخ قدماً في الحضارة يكسب جاره أدباً وعرفاناً . وفي القرن العاشر للميلاد تغلب البابا سيلفستر الثاني على التعصب الديني وخرج من مدينة أوريلاق مسقط رأسه وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادي الكبير وجاور في اشبيليه ثلاث سنوات وفتح لقومه باب العلم والمعارف فدخلوه طوعاً أو كرهاً وارتحل الافرنج في طلب العلم الى مدارس الاندلس وحضروا على مشايخها وعادوا لاوطانهم متنورين يلقون الدروس في ساحات المدن الكبيرة وتجتمع حولهم الطلبة والعوام على مالوف العادة الجارية ليومنا في المدارس والجوامع الاسلامية . فأدرك الناس فوائد العلم وقرب الملوك والامراء منهم علماء المسلمين وأغدقوا عليهم . فكان الشريف الادريسي صاحب الجغرافية عند رجار المعروف عندهم بروجر الثاني ملك صقلية ونابولي وهو من سلالة الملوك النورمانديين . وكان احفاد ابن رشد المتضلعون في علم الحيوان والنبات عند خلفاء رجار في مملكة صقلية ونابولي المعبر عنهما بالصقليتين . فكان مثل هؤلاء كمثل الاوروبيين المستخدمين اليوم في الممالك الشرقية . وظل الافرنج بعد استرداد صقلية يكتبون بالعربية على المباني العمومية والعمارات الملوكية واستعمل علماؤهم اصطلاحات العرب العلمية في جميع أوروبا . وفي القرن الثالث عشر للميلاد فتحوا مدرسة للطب والعلوم في مدينة مون بيليه القريبة لمرسيليا وجاؤا لها بالمعلمين من عرب الاندلس ويهودها المستعربين فكانت تلك المدرسة أقدم المدارس في أوروبا بعد مدرسة ساليرن القريبة لنابولي . ولم تزل مدرسة مون بيليه عامرة يقصدها طلبة العلم من الاستانة ومصر وغيرهما من بلاد الشرق . ثم في سنة ١٣٢٣ أنشأ أدباء الافرنج في مدينة طولوز التي فتحها العرب سابقاً جمعية أدبية لم تزل زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية لعب الازهار وتفرق

في كل سنة على نوابغ الشعراء عشر جوائز مصوغه من الذهب والفضة على هيئه الازهار وكان لفيكتور هوكو منها اوفر نصيب كما تقدم . ومعلوم ان العرب اقاموا مدة بتلك الاصقاع وحرثوا أرضها وتزوجوا بناتها وعمرت بهم مدينة أربونة (ناربون) وقرقشونه (قرقسون) وفراقسنه وكانت مستعمرة للعرب في شرق مرسيليا . وقسطل سارازين ومعناها قلعة العرب وهي في الشمال الغربي من طولوز

فتعلم الافرنج من العرب القوافي ورقة الغزل وآداب النظم والنثر وتلحين الاغاني والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الامثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الادب الفرنساوي . والى ذلك أشار الموسيو رينه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنساوية . وبعد ان اطلع الافرنج من كتب الاسلام على ما عند اليونان من الفلسفة والحكمة اقبلوا على درس اللغة اليونانية ولم يهملوا كتب أدبها كما أهملها العرب من قبلهم . بل تهافتوا على درس أدب اليونان واللاتين وعلى حفظ أشعارهم والتمثل بها . وهاموا في قص قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لان فن التشخيص او التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان والف أدباؤهم كثيراً من الروايات واشتهر منها مؤلفات اوربيد وسيما رواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها . ولا يزال السياح يشاهدون في أتينة على سفح الجبل تحت قلعة الاقروبول اثار المرسحين العظيمين اللذين هما من بقايا التمدن القديم

وكان اسبق امم اوربا الى تحصيل فنون الادب الاسبانيول والطليان المجاورون للعرب . فظهر في الاولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو الف وثمانماية رواية تمثيلية وظهر فيهم أيضاً الشاعر قالديرون ولوقين وغيرهم . وفي الطليان ظهر الشاعر دانتي (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) وطارله ذكر في العالم وهو يعد في مصاف اكبر شعراء الامم القديمة والحديثة وسبب شهرته كتابه الموسوم بالكوميدية الالهية — ديفين كوميدي — الفه في غضون سنة ١٣٠٠ م وجعله على ثلاثة أبواب باب في جهنم وباب في الاعراف وباب في الجنة . وسمى الباب منها بالنشيد وقسمه الى مائة

غناء كل غناء يشتمل على ١٣٠ او ١٤٠ بيتاً . وافتتح كتابه بباب جهنم وصور نفسه مشرفاً على غابة مظلمة تقشعر الجلود من سماع وصفها . وهم بدخولها لو لم يعترضه ثلاثة سباع كاسرة . وبينما هو بين أظفار المنية واذ ظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني وعرض عليه ان يكون قائداً له في الاعراف والسعير فقط لانه لا يستطيع دخول الجنة ولا وطء عتابها لكونه من عبدة الاوثان . فقبل دانتي بقيادة فرجيل له وسارا معاً في عالم أهل النار . وأطنب الشاعر في وصف أصحاب السعير وصور عذاب الذين مر بهم من الظلمة والجبارين وأتى على قصة ايكولين وكان جباراً عنيداً في مدينة بيزا فوقع بأيدي أعدائه فوضعوه مع أولاده في برج وسدوا عليهم جميعاً فاشتد به الجوع وأكل أولاده ثم هلك . فوصف دانتي جميع ذلك بصورة هائلة على الاسلوب المعروف بالدراماتيقي . ولما أدته خاتمة المطاف الى الجنة وجد بابها بياتريس وكانت من ربات الجمال المشهورات بمدينة فلورانسا وقيل كانت معشوقته فتلقته واخترقت به طبقات الجنة المسيحية او طباق السموات فلقي فيها كثيراً من الابرار والقديسين والملائكة المقربين و باحثهم بالمسائل اللاهوتية والعلوم الالهية والكلامية وجمع دانتي في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به أساس اللغة الطليانية فكان كتابه كدائرة المعارف والاداب . ولم يزل يستوقف انظار الادباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة العجيبة في التنقل من مبحث الى آخر . فالكوميدية او المضحكة الالهية اشبه برساله الغفران التي حررها المعري قبل تأليف الكوميدية باكثر من قرنين وقدمها جواباً لرسالة وردت عليه من أحد اصحابه الافاضل في حلب وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها ولذكر من دخلها من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون . وما كانوا يدخلونها الا بعمل صغير كان له عند الله اجر كبير فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر وقالت لهم الملائكة طبتم فادخلوها خالدين

واقتفت الامم الاوروبية أثر الاسبانيين والطليان في العدول عن اللغة اللاتينية الى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . وأقبل الادباء في انكلترة على التأليف باللغة الانكليزية وأصلح الفرنساويون لسان رومان وهذبوه فاصبح اللغة الفرنساوية .

واقتفى الالمان أثر من ذكر من الامم ودونوا لغتهم الالمانية . وكان فن الادب منحصراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظر للعوام فيه ولذا اختار الادباء اصطلاحات مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتعملوا له . لان الخواص من الناس يأنفون من استماع الكلام السوقي المبتذل ويألفون الغوص على المعاني واعمال الذهن في استخراجها . ثم ظهر في فرانسا الكسندرهاردي وهو أول من أصلح فن التمثيل واللعب على المراسح . واتخذ الروايات الاسبانية نموذجاً له ونظم على منوالها كثيراً من الروايات الفرنساوية وشخصها على مرسح باريس في حدود سنة ١٦٠٠ م . وفن التمثيل كما لا يخفى هو من اكبر العوامل على ترقي فنون الادب واصلاح طرق النظم والنثر . لان الاديب يخاطب بهذا الفن الجمهور وأصناف الناس فيتحرى في كلامه التعبير الذي يستطيعون فهمه والاساليب التي ها وقع في نفوسهم بخلاف من يؤلف كلامه للخواص فانه يتعمل في التأليف ويتصنع ليظهر تفننه واقتداره على ايراد النكت والدقائق التي لا يفهمها الا أصحاب الغوص على المعاني

والتمثيل كما لا يخفى مشتق من ضرب المثل . فان الرواية التمثيلية ما هي الاضرب مثل جامع للاطراف والتفاصيل . وأحسن ضروب الامثال وأبدعها وردت في القرآن الكريم الذي تحدى به النبي عليه السلام العرب وقال أتوني بسورة من مثله فقالوا انت تعرف من أخبار الامم ما لا نعرف فذلك يمكنك ما لا يمكننا . قال فهاتوها مفتريات . فالرواية هي أسلوب من أساليب المفتريات . وأساس فن التمثيل عند الاوروبيين مستفاد من أعمال المتعبدين في الكنائس ومن تشخيص ما شبه لهم في المسيح ابن مريم عليهما السلام من القتل والصلب ومن تمثيل آلام الذين اقتدوا به من القديسين والشهداء في سبيل النصرانية . ولما درس الافرنج اليونانية واللاتينية وانتشقت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم حذوا حذو شعراء اليونان والرومان واتخذوا رواياتهم منوالاً نسجوا عليه أمثالها من كلمات أخرى فرنساوية وربما ترجموا أبيات شعرهم وسرقوا معانيهم وصاغوها في الفاظ فرنساوية من الطبقة العليا وتأنقوا فيها نهاية التأنق وراعوا قواعد النحو والصرف والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية

والاساليب المتعارفة فجاءت أبياتهم متينة وقوافيهم عامرة وكل بيت منها كلام تام في مقصوده ويصلح ان ينفرد دون ما سواه . ولم تحصل الملكة في ذلك الا لمن هو على جانب من العلم وله الحظ الاكبر من الذوق السليم لاحتياجه الى تلطف كثير في استحصال الملكة حتى يفرغ الكلام الشعريّ في قوالبه التي عرفت له . وبلغ الادب الفرنساوي في عصر لويس الرابع عشر أي من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٧١٥ أوج الكمال ومنتهى البلاغة . وأصلح الادباء فنون الادب ورتبوها على القواعد وهذبوها ووضعوا المؤلفات الجليلة والروايات البديعة وظنوا بأنهم لم يتركوا شيئاً للمتأخرين . فكان عصر لويس الرابع عشر في الادب عصرًا مدرسياً (كلاسيك) أشبه بعصر أغسطوس عند الرومان وبعصر بيرقاس عند اليونان . ونبغ من شعراء الفرنساويين في فن الفاجعات (تراجيدي) الاديب بييرقورنيل والشاعر المفلق راسين . ونبغ في فن المضحكات (كوميدي) الاديب موليير . ونبغ في فن الهجويات (ساتير) الاديب المدقق بوالو . فهؤلاء من نوابغ العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى الفصاحة والبلاغة . ومن أحسن مؤلفات بييرقورنيل رواية السيد والكلمة عربية لقب بها أحد أبطال الاسبانيين في القرن الحادي عشر للميلاد . وبيان ذلك :

ان العرب بعد استيلائهم على جزيرة الاندلس (١) التجأت بقية السيوف من القوط الى جبال استوريا وتحصنوا فيها ولما شمتهم وشكلوا حكومات وامارات صغيرة فلم يعبأ بهم العرب وحسبوهم من قطاع الطرق المتشردين في الجبال وتشاغلوا عنهم باعمار تلك السهول وتمنعوا برياضها الغناء . فمن الامارات التي أسسها القوط في شمال الاندلس استورية وليون وقشتالة وكان المالك عليها في ابتداء القرن الحادي عشر للميلاد فردبناند الاول فأوصى بتقسيم الملك بعد وفاته بين أولاده فكان ابنه الفونس السادس على ليون الاسبانية وابنه الثاني سانش على قشتالة . فالسيد صاحب

(١) قالت العرب جزيرة الاندلس وجزيرة العرب وذلك اخف من قولنا شبه جزيرة الاندلس وبحيث جزيرة العرب والاندلس تطلق على مملكة اسبانيا ومملكة البورتغال ماعدا جزر صغير في الشمال الغربي من مملكة اسبانيا

الرواية ولد سنة ١٠٣ وسمي رودريك وكان أبوه الدون ديفوا من اشراف القوط فأدخله في سراي فرديناند الاول وبعد وفاته دخل في خدمة ابنه سانش . ولما اقتتل الاخوان وانهزم سانش في احدى الواقع قوّى السيد عزمه وأشار عليه بالمشورات الحسنة فاتبع رأيه وانتصر على أخيه وحبسه وتفرد بالملك على ليون وقشتالة فكان السيد له نديمًا ووزيرًا وناصحًا ومشيرًا . ثم حدثت فتنة وقتل سانش في محاصرة زاموره وخلفه أخوه الفونس السادس فأمن السيد وأقسم له الايمان المغلظة بأنه لامدخل له في قتل أخيه سانش وقربه منه وزوجه بواحدة من قريباته وكانت على رواية التاريخ عجوزًا شنعاء ولم يتزوجها السيد الا طمعًا في مالها . وبعد ان تم الامر للفونس السادس وأمن غوائل الرقباء فعل بالسيد ما يفعله المستبدون من الملوك وصادره وأراد الفتك به ففر من ملكه الى الحدود الاسلامية وعمر قلعة بالقرب من سرقسطة (ساراغوس) بين دارقه والقنيز . ولم يزل أثر تلك القلعة على صخرة عالية تسمى صخرة السيد كما تنسب الصخرة التي في رونسيفو أي في مدخل جبال البيرينة الى رولان . واستقل السيد بحكمه في تلك القلعة وكان يتعيش هو ورجاله من النهب والغارة على القرى المجاورة ومن قطع الطرق على القوافل الاسلامية والمسيحية . فاشتهر خبره وتحدثت الركبان بشجاعته ثم اتفق مع أمير سرقسطه وأمير البراسين وهما من أمراء المسلمين وقاتل معهما أمير اراغون المسيحي وحارب كذلك عسكر الفونس السادس والمتفقين معه من أمراء المسلمين لانهم كانوا متفرقي الكلمة يقاتل بعضهم بعضًا . فجاءهم يوسف بن تاشفين بعساكر المرابطين من افريقية ووحد كلمة الاسلام في عموم جزيرة الاندلس مع انه كان اميا بربريا . فوقف السيد امام المرابطين ودفع هجماتهم عن بلنسية ولم يمكنهم من الاستيلاء عليها الا بعد وفاته في سنة ١٠٩٩ م . فتحدث القريب والبعيد بشجاعة السيد وثبات عزمه وطار له ذكر بين الفرسان ونظمت فيه القصائد العنترية او الهلالية بلسان رومان . ثم جاء قورنيل ونظم فيه روايته المشهورة بدون التفات للتاريخ ولا تعمق فيه بل نسج على منوال القصائد الرومانية وتخيل فيها تخيلاته الشعرية وجعل تلك المرأة التي تزوجها السيد

بديعة الحسن والجمال . ولما عشقها وعشقته اتفق ان والدها أهان والده فانقض عليه السيد وقتله وتمكن من تسليط ارادته على عشقه . أما اسم السيد فأطلق عليه حينما كان متفقاً مع أمير سرقسطه وأمير البراسين وحارب معهما ولم تتعمق في التاريخ لنفهم هل دخل السيد في الاسلام أم لا . ومن أبيات قورنيل في روايته المذكورة قوله : (كلاهما سمياك سيدهما بحضوري لان السيد لسانهم تعادل كلمة سنيور)

اما ما ألفه راسين من الروايات الموافقة تماماً للقواعد المدرسية فاحسنها رواية (اندروماق) ونسجها على منوال سميتها الرواية اليونانية المؤلفة قبل الميلاد بأربعة قرون وتخالف رواية السيد في وحدة الزمان وفي أخلاق بطلها لتغلب العشق عليه وانتصاره على ارادة العاشق . ومن روايات راسين استير الاسرائيلية ويشخصها أحياناً طلبة المدارس في بيروت . ورواية اتلي وهي من الاسرائيليات أيضاً — قال فولتير انها أحسن محصولات العقل البشري . ومن أحسن ما ألفه موليير في المضحكات رواية تارتوف وهو رجل مرائي في نسكه وعبادته أغفل بخبثه أحد المتولين من البسطاء واستولى على أمواله وعياله فصار اسم تارتوف كناية عن الرياء والخبث . وقد أتى المعري بأبيات كثيرة تشتمل على مضمون هذه الرواية كقوله :

وليس عندهم دينٌ ولا نُسكٌ (فلا تغرك أيدٍ تحمل السبحا)
وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم يسبحون وباتوا في الخنا سبحا

والف بوالو كتاب الهجويات (ساتير) ووضع في قواعد الشعر كتاباً سماه الفن أو الصناعة الشعرية (آربو يتيك) وأنكر الشعر والشعراء في المتقدمين وقال لم تأت فرانسا بشاعر قبل (ماليرب) أي ان الشعراء الذين جاؤا قبل دخول القرن السابع عشر لا يستحقون الذكر في مصاف الشعراء لعدم اتيانهم بالكلام المدرسي المنتظم المعقول ولتهافتهم على التصنع البارد في الكلام واظهار الرونق الكاذب فيه وبيان مهارتهم وعلمهم بكل ماهو من فضول الكلام ولذا فكلامهم لا طعم له وفيه كثير من الغرور والاعجاب . فبوالو بالغ في كلامه وحطَّ كثيراً من كرامة المتقدمين ولكنه أصلح أساليب الشعر الفرنساوي كما أصلح باسكال أساليب النثر . وكان باسكال اماماً

في العلوم الرياضية والطبيعية . واقتفى أثر بوالو في انتقاد كلام المتقدمين الوزير ضيا باشا والف مجموعة سماها الخرابات خرب فيها كثيرًا من أشعار الفرس والترك والعرب المتقدمين عليه وكانت وفاته في بروسة سنة ١٢٩٥ هـ فجاء كمال بك امام الادب في اللسان العثماني وكتب عليه انتقادًا سماه تخريب الخرابات ونشره في مطبعة أبوالضياء فالغاية التي يتطلبها أئمة الادب العثماني كالذين ذكرا وعبد الحق حامد بك مستشار سفارة لوندره واكرم بك وسعيد بك من أعضاء الشورى والمعلم ناجي افندي المتوفى منذ بضع سنين وبقية النشأة الجديدة — هي تخليص لسانهم من مبالغات الفرس الاعاجم والسلوك فيه منهج بوالو وراسين وقورنيل وموليير وبقية أدباء عصر لويس الرابع عشر . لان هؤلاء الادباء يذهبون الى أن التخيل الشعري ينبغي ان يكون مقرونًا بالتعقل . فمندهم ان الشعر ليس أعذبه أكذبه بل أحسنه أصدقه كما قال حسان :

وان أحسن بيت أنت قائلهُ بيت يقال اذا أنشدته صدقا

واشترطوا في الروايات التمثيلية ثلاثة شروط

وحدة الزمان

وحدة المكان

وحدة العمل

أي ان الحادثة الممثلة على المرسح يشترط تصور حدوثها في زمن واحد أي في ظرف ٢٤ ساعة مثلاً ليكون التمثيل أقرب الى الحقيقة وأشبه بالواقع لان حوادث الاربعة والعشرين ساعة يمكن اختصارها وتمثيلها في ساعتين . فراسين راعى هذا الشرط في رواية اندروماق . وقورنيل خالفه في رواية السيد ونقل بطل الرواية من سنة الى أخرى . فالقائلون بهذا الشرط تنقبض نفوسهم من تمثيل الحوادث التي حدثت في ازمان متطاولة . وقصدهم من وحدة المكان اشتراط وقوع الحادثة في مكان واحد لئلا ينتقل ذهن السامع من مكان لاخر فيبتعد بذلك عن الحقيقة . ولذا كانت مراسح القائلين بهذا الشرط ثابتة المناظر من أول اللعب الى آخره . بحيث

اذا رفع الستار عن مكان يبقى المكان بعينه في الفصل الثاني وما بعده من فصول الرواية لمراعاة شرط وحدة المكان . والمراد من الشرط الثالث ان يكون بطل الرواية واحد وعروسها واحدة ثم السعي وراء عمل واحد وهو الحب مثلاً وينتهي بفناء المحبين او أحدهما او انتصارهما أو تغلب ارادة العاشق على عشقه كما فعل السيد وقتل ابا معشوقته أخذاً بثار أبيه أو بالعكس كما قتل سفير اليونان زوج محبوبته في رواية اندروماق وخان بذلك وطنه ولم يرع عهد من أئتمنه كل ذلك مرضاة لمعشوقته

فمصدر هذه الشروط والقيود وأمثالها هو التعقل في الكلام الادبي وتحكيم الذوق السليم في فنونه . ولم يكن الادباء قبل عصر لويس الرابع عشر يتعقلون في نظمهم ونثرهم ولا يحكمون الذوق السليم فيها . ولذا كانت فنون أدبهم مشحونة بالخرافات والاباطيل وبما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال وخارق للعادة ومشتمل على المبالغات العجمية وعلى زخرف القول . فلما تعقل الادباء في كلامهم وجدت الطريقة المدرسية التي قيل لها (كلاسيك) . والكلمة كما هو معلوم مشتقة من الصف والدرس والمدرسة . لان السالكين هذه الطريقة لا بد لهم من درس أثار الواضعين لقواعدها والارتياض في كلامهم لتحصل لهم ملكة في النظم والنثر . واما الطريقة المدرسية وشيخها الاكبر راسين

١٩ — الطريقة المدرسية عند الافرنج

فروايات الادباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية كما يقال للكتاب الذي يدرس في المدارس كتاب مدرسي ويقصد به الكتاب الاقرب الى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه . فرتبة الكمال يمكننا تصورها والاحاطة بها في العلوم المدرسية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والعروض أو الفقه والحساب . ولكن في الادب وفي الروايات التمثيلية ليت شعري ما هي مرتبة الكمال ؟ ففي جواب هذا السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الادبية من مدرسية ورمانية وحقيقية أو طبيعية وفي نهايتهم الطريقة الانسانية وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره الموسيو

فيكتور بيرار مستشار نظارة البوستة والتلغراف وبحث فيه عن الأوديسة التي نظمها اوميروس الشاعر اليوناني • وكان الموسيو بول ادم بحث عن هذه الطريقة الادبية الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها (اسرار الجمهور) (مستيردوفول) وبول ادم يحرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية

فاصحاب الطريقة المدرسية يذهبون الى ان مرتبة الكمال في الادب هي « أولاً » تمام النسبة التي بين أساس الفكر وبين شكل التعبير • اي بين المعاني التي يخلقها الشاعر وبين قوالب الالفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها • فعلى مذهبهم لا يكفي ان يكون المعنى حسناً بل ينبغي ان يكون الحسن أيضاً في كيفية أداء هذا المعنى • فالكلام الجاري على الطريقة المدرسية هو معنى بديع في لفظ حسن (١) • فهذه الموازنة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير هي الخاصة المميزة لمؤلفات العصور المدرسية كعصر لويس الرابع عشر وعصر اغسطوس وعصر بيركلس • والعصر المدرسي لا يوجد عند جميع الاقوام بل بعض الامم ليس لهم عصر مدرسي ولا أدب مدرسي مطلقاً ولا يتيسر لهم الوصول الى مرتبة الكمال في الادب أبداً • لانهم اذا تمكنوا من الاتيان بالمعاني البديعة فلا يتمكنون من اداء هذه المعاني بالالفاظ الحسنة ولا يقدرون على الترجمة عن أفكارهم حق الترجمة لاحد السببين : اما ان اللسان الذي يتكلمون به لم يزل على خشونته ولم يكتسب بعد الشكل البديع • وأما ان تكون أساليب الفن ولوازم الصناعة الادبية لم تعرف بعد عند المتكلمين به • ثم انهم يشترطون في التأليف المدرسي ان يكون ظهوره في الزمن الذي بلغت اللغة فيه اوج الكمال ويقولون لا بد من هذا الشرط • ويعترضون

---

(١) قال ابن خلدون : الذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ • وأما المعاني فهي في الضمائر • فالمعاني موجودة عند كل واحد • وفي طوع كل فكر منها مايشاء ويرضي فلا تحتاج الى صناعة ؟؟ وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج لصناعة (Art) • وهو بمثابة القوالب للمعاني • فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنيه الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف • والماء واحد في نفسه • وتختلف الجودة في الاواني المملوءة باختلاف جنسها لا باختلاف الماء • اه كلامه • وفي بعضه نظر ولا يخفى ان الشاعر المفلق أقدر من غيره على رؤية الاشياء ببصره وبصيرته وعلى التعبير عنها بلسانه • فالمعاني المتحصلة في ذهنه لا توجد عند كل واحد

على أصحاب الطريقة الرومانية لانهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير • ولم يكتفوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الاداء • بل أرادوا زيادة عن هذه النسبة التامة • بل تطلبوا أزيد من ذلك أيضاً • فارجعهم تهافتهم الى الوراء وساقهم الى الاساليب الاجنبية وأوصلهم الى طريقة لوب دوفيكه الاسباني والى طريقة بايرون وشكسبير الانكليزيين

ويذهب أصحاب الطريقة المدرسية الى ان مرتبة الكمال في الادب هي « ثانياً » وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل • بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس • فاذا كان التخيل الشعري في التأليف الادبي منافياً للعقل فلا يعتبرون ذلك التأليف على نهج الطريقة المدرسية • مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب • ومبالغات العرب أقل من غيرها لا سيما في كلام الجاهلية وأهل الطبقة الاولى من الاسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم ولا حصلت لهم ألفة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم • ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني ••••• الى ان قال : لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة والمتنبي ولد في الكوفة وذهب الى فارس واختلط بادباء العجم • ومن مبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالالفاظ الفارسية والتركيب والتركي يصف يوماً شديد الحر :

(•••• كيم برمور بردم كرم ايله ايلريدى درياي سراب) • ومعناه ان النملة بنفسٍ حارٍّ تجعل السبع البحور سراباً • ومن قرأ ديوان نفعي حسب ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقيه صورة له ومنها قول ضيا باشا — وهو في مقدمة أدباء النشأة الجديدة العثمانية وله وقوف على الفرنساوية — باللسان العثماني الجديد الذي يكثر فيه استعمال الالفاظ العربية • (سرولر افلاكه سرچكمش مثال قديار) • ومعناه مثل قد الحبيب كاشجار سروٍ تناطح برؤوسها الافلاك • ويذكرني هذا ما قاله احد الواعظين في جامع ايا صوفيا بان من صام كذا وصلى كذا وسبح كذا في ليلة القدر التي هي خير من الف شهر رزقه الله في الجنة حورية طولها ما بين بعد المشرقين • فان كنا نستهجن طول الآنسة ايلابوين أطول

نساء العالم ولا تتوق النفس الى قربها وهي لا تزيد عن الطول المعتاد باكثر من قدمين فما بالك ان زاد قدُّ عروسنا الميال عن ذلك

ويقسم علماء المعاني المبالغة الى ثلاثة أقسام : وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً وعادة ويقال لها التبليغ • ومعقولة وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً لا عادة ويقال لها الاغراق • وغير معقولة وهي مالا يجوز وقوعها العقل ولا العادة ويقال لها الغلو • فاهل الطريقة المدرسية يرفضون الغلو والاغراق في الكلام • ويقولون بان بعض الامم او بعض العصور في الامة الواحدة لها تخيل شعري وليس لها تعقل • وقد جاءت هذه الامم او هذه العصور بكثير من المؤلفات البديعة التي لا تخلو من الفوائد ولكن مؤلفاتهم ليست بمدرسية لوجود التخيل الشعري فيها بدون تعقل • كما هو الحال في ماها بهاراته ورامايانه من أشعار الحماسة الهندية وفي الشعر الفارسي والتركي القديم وبعض أشعار العرب المخالطين للعجم • فمن خصائص العصور والآداب المدرسية تحكيم الذوق السليم في مؤلفاتها والذوق السليم لا يميل طبعاً الا للجمال والتناسب والقياس ولا وجود لما ذكر في زمن تشكل اللسان ولا في زمن انقراضه

ولاصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة أيضاً وهي محبتهم الصدق والحقيقة • فهم يذهبون الى ان أحسن الشعر أصدقه لا أكذبه • ولكنهم لا يقصدون باتباع الحقيقة تصوير الحقيقة بعينها تصويراً تاماً كما ذهب اليه أصحاب الطريقة الحقيقية وورد في مؤلفات امامهم اميل زولا • كلا بل يقولون فقط بلزوم ارتباط التصوير الذهني بالشيء الحقيقي وبان التصوير الذهني وحده في الشعر لا يكفي

وعندهم ايضاً ان التآليف المدرسية يجب ان تكون منحصرة في تصوير الجميل والبديع فالتآليف المغايرة للآداب الاخلاقية والموجبة لاشمئزاز النفس يندر فيها الجمال فلا تكون مدرسية • فهم لا يطالبون الكاتب الذي يسلك طريقهم بان لا يحرك قلمه الا في المواعظ الحسنة والاخلاق المستحسنة ولا يصور فيها شيئاً غير الجمال • ولكنهم ينذرونه بسقوط مؤلفاته ان ملاها بوصف الاشياء القبيحة والافعال الشنيعة • كما فعل زولا في كتاباته وصور فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة • ونظم احد الادباء في العام الماضي رواية صور فيها الامراض الزهرية والعلل الافرنجية التي تحدث من الانهماك في العهر وشرح ذلك على مرسح اللعب شرحاً اليق ان يكون في غرفة الطبيب المخصصة لمعاينة الامراض السرية • فمنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشربة والشمعة من

المرسح المصري في المعرض الاخير • ويقال بان الرواية المذكورة في غاية من البلاغة وباعثة على التعفف

ويشترطون في الطريقة المدرسية شرطاً أخيراً وهو ان تكون المؤلفات فيها ملية قومية اي مصورة لافكار القوم الفلسفية ولاحوالهم الاجتماعية • فان كان التأليف الادبي وضع تقليداً للاجانب فلايكون مدرسياً • فبناءً عليه يكون هذا الشرط مرعياً في المؤلفات التي استخرج صاحب مجاني الادب زبدتها في كتابه لانها من المؤلفات المختصة بالعرب قبل الاسلام وبعده • بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الاسلوب الافرنجي وربما كانت مترجمة عن لسان من الالسنة الاجنبية فانها ليست على وفق الطريقة المدرسية • مع ما فيها من الفوائد التي سنذكرها في بحث الطريقة الرومانية

فهذه زبدة الاقوال وخلاصة القواعد التي أسست عليها الطريقة المدرسية • فكان من اتى من الادباء بعد عصر لويس الرابع عشر وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان الفرنساوي فيه درجة الكمال لا يخرجون في النظم والتأليف عن الاساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية ولا عن الاساليب التي راعوها • ويتكلفون لذلك الصعاب ويعانون طول الدرس ومراعاة القواعد ليتمكنوا من تحسين العبارة ومن تطبيقها على ما يتخيلونه من التشابيه والاستعارات ويلتزمون عدم الخروج عن أوزان العروض المصطلح عليها بين قومهم وجماعتهم ويجعلون كل بيت في الغالب كلاماً تاماً ولا يأتون بشيء من الكلام السوقي المبتذل ولا يصورون رذيلة من الرذائل ولا سوأة من سوآت الانسان وعوراته ولا يصفون شيئاً من بؤس المعيشة او سفلة الحياة الدنيا • وينتخبون مواضيع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الاولى اي من تاريخ اليونان والرومان والعبرانيين • فكان كلامهم مشتملاً على التخيل الشعري وعلى التعقل المشروط وجودها في الطريقة المدرسية ولكنه بارد ممل بسبب ما فيه من التصنع والتعمل ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول اصحابه ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والاساليب الانشائية • فمؤلفاتهم مع استيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيراً على النفس ولا تهييجاً للعواطف كمؤلفات الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الاحساس القلبي فيها • ولذا قالوا بان راسين وقورنيل ومولير وأهل طبقتهم لو اطلقوا العنان لاقلامهم ولم يقيدوها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لاتوا باحسن مما جاؤا به من درر الالفاظ وغرر المعاني

فهذا ما كان عليه فن الادب الفرنساوي قبيل الانقلاب الكبير ولذا كان الكثير من الكتبة لا سيما النشأة الجديدة يتذمرون من تقيدهم بتلك القيود المدرسية ويرون انفسهم كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه • فكان مثلهم كمثل غلام في مكاتبنا اراد التحرير لوالديه فلم ير امامه من نموذج الانشاء سوى ما طبع في الاستانة من رسائل الخوارزمي والبديع الهمذاني • وكانت هذه النشأة الجديدة ترى أيضاً قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة وهي مطابقة الكلام للواقع ومقتضى الحال • لان أصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقل في الكلام كادوا بكثرة تشابيهم واستعاراتهم لا يسمون الاشياء باسمائها الحقيقية ويستعملون الحشو ويتكلفون للعبارات التي لا لزوم لها • فاذا أراد أحدهم ان يعين الوقت وهو يكتب قصة او رواية ويقول مثلاً قبل مرور ساعة من الزمان دبج عباراته وكثر استعاراته وقال :

(قبل ان يتم العقرب خطاه المنظومة وينقل على مينا الساعة المجلاة ستين خطوة موزونة ٠٠٠٠) الخ

كما فعل الشاعر الفرنساوي اندره شينيه وهو خاتمة الشعراء السالكين منهج الطريقة المدرسية وأبلغهم كلاماً • وكانت ولادته في الاستانة وأمهُ رومية فارتحل الى باريس وصار فيها امام أهل طبقته فلما قتل سنة ١٧٩٤ م مع من قتل من أفاضل الرجال واكابرهم بآلة الكيليوتين انقرضت الطريقة المدرسية بعد ان كانت قواعدها وأساليبها هي المرعية بين الادباء • يتبع فيها الخلف اثر السلف • ومع اعتراف النشأة الجديدة بما فيها من القصور والخلل لم يقدم أحد منهم على تركها ولا الخروج عنها لاوائل القرن التاسع عشر

فقبل هذا التاريخ كان جمهور الناس وعوام الامة في تسيب وغفلة لا يقيدون على المصالح انتظمت او لم تنتظم ويدعون الامور تجري في مجراها حسناً كان او قبيحاً نافعاً او مضرًّا كما يجري الماء في الارض الطيبة بدون حفر النهر ولا كريه • وكانوا يستعملون هذا التعبير (ليسه أله) كما نستعمل تعبير (طيب معليش) • ولا يهتمون بالمسائل العمومية والاجتماعية كانها لا تعنيهم ولا يعود خيرها وشرها عليهم • فلما حدث الانقلاب الكبير في فرانسا سنة ١٧٧٩ م تغيرت البلاد ومن عليها في بضع سنين وانقلبت أفكار الناس وعاداتهم وأخلاقهم وزال عنهم التسيب والغفلة والكسل والرخاوة وشغفوا بحب الانتظام والدقة • فتقيدوا بالمسائل وتبصروا بالامور وكانوا صامتين ناصتين مفكرين

متعقلين لا يضيعون اوقاتهم في مالا فائدة فيه ولا يشتغلون بالعبث من اللهو واعتادوا على الآداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات لان الامة بامرها حتى النساء والصبيان كانوا باجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفرون من غرب أوروبا الى شرقيها ومن قارة افريقيا الى قارة اسيا اي من مصر الى سوريا • فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وقعوده أمراً ولا يغفل في ملابسه عن زرّ ولا يترك فيها فتقاً بغير رتق واذا وقف استقامت قامته لان الانسان مستقيم القامة واذا مشى او ركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل اكابر بعض الامم دلالاً وعظمةً بل اعتمد في حركاته على نفسه • وانتزع من عقولهم اكثر الخرافات والاباطيل التي تتولد في الانسان عادة ويكبرها الوهم في مخيلته ما دام في مكانه لا يخرج منه ولا يسيح في الارض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين

فانقلاب الاخلاق والعادات والاطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات ولذا كان العصر الجديد مفتقراً لاسلوب جديد في النظم والنثر وكان رجال العصر يترقبون حصول انقلاب في الادب كما حصل في السياسة والعادات • فولد فيكتور هوكو وللعصر الجديد سنتان وصار رجل هذا الانقلاب الادبي

٣٠ — الطريقة الرومانية

اسلوب الطريقة الرومانية ابتدأ ظهوره في مؤلفات شكسبير امام الادب وامير البلاغة • ثم نسج على منوال هذه الطريقة ادباء الالمان وراجت بضاعتهم فيها • ثم جاء فيكتور هوكو وكشف اساس الطريقة واوضح مزاياها وصار امامها المشار اليه بالبنان

﴿ الادب عند الانكليز ﴾ فالانكليز كانوا في مقدمة الامم الاوربية التي انتبهت من غفلة القرون الوسطى وبادرت الى اصلاح لسانها ووضع فنون الادب والعلم فيه • وقبل ظهور الادب الانكليزي كان الانكليز انفسهم يعتنون باشعار المداحين وشعراء الربابة من الفرنساويين • وكانت اللغة الفرنساوية لسانهم الرسمي على عهد ملكهم كليوم الفاتح (١٠٢٧ ــ ١٠٨٧) ومن خلفه عليهم من السلالة النورماندية • ولذا بقيت الكلمات الفرنساوية مستكثرة في اللغة الانكليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية • ثم اشتغل الانكليز بتهذيب لغتهم واصلاحها فاصبحت اليوم من اغنى اللغات الجديدة ادباً بعد اللسان الفرنساوي • ونبغ فيهم وليم شكسبير (١٥٦٤ ــ ١٦١٦ م) وجمع

في مؤلفاته ما تفرد به قورنيل وراسين من فن المبكيات وما اختص به موليير و بومارشه [1] من فن المضحكات وصار اماماً في كثير من الفنون الادبية كفن التراجيديا التاريخية والدرام والكوميديا والاغاني المعبر عنها بالشعر الموسيقي (ليريك) . فكان في افانين الادب كما قال الشاعر:

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والف شكسبير نحواً من ٣٥ رواية ترجمت لجميع اللغات الاوربية وترجمها للفرنساوية فرانسوا بن فيكتور هوكو وطبعت في ١٨ مجلداً . ولم تزل رواياته تمثل على مراسح الفرنساويين والطليان وغيرهما من الامم . وتمثل احياناً في الاستانة وازمير ومصر والاسكندرية ايضاً . واشهر ما يمثل منها (روميو وجوليت) وهما فتى وفتاة تحاباً حباً شديداً وقاسيا تباريح الجوى بسبب العداوة التي بين اهل الفتى المحب وبين اهل محبوبته . على مثال ما يقع بين قبائل العرب من العداوات التي تحول بين العاشق والمعشوق . بل على مثال ما يحدث في سوريا وفلسطين بين العائلات والبيوت القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصال المتحابين ليومنا هذا . ففي اواخر القرن التاسع عشر للميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه عشق روميو وجوليت من وجوه لاسيما في اقتران المحبين سرًّا بمعرفة فقيه من المشايخ كما اقترن روميو بجوليت على يد الراهب لورانس وافضى الامر الى هلاك المحبين في الحادثتين هلاكاً تذرف الدموع لقص خبره وتنفطر القلوب لمشاهدة تمثيله . فالتهويل بالموت في الحادثة الممثلة مما يجعلها من فن المبكيات . وتزيين المجلس بظرف الراهب او لطف الفقيه مما يقرب الحادثة الممثلة لفن المضحكات الذي مثلناه فيما سبق برواية تارتوف لانها احسن نموذج لهذا الفن . ولكن الفرق عظيم بين تارتوف وبين لورانس . لان تارتوف تمثال مجسم للرياء والمكر يخدع الناس بحمل السبحة بيده و يصيد قلوب المغفلين باظهار النسك وكثرة العبادة . وليس فيه شيء من الظرف والمجون ولا العلم والادب المتصف بهما ابو زيد السروجي بطل مقامات الحريري . بخلاف الراهب لورانس او الشيخ ... فانهما من ذوي الناموس والوجدان .

---

(١) بومارشة (١٧٤٢ ـ ١٧٩٩) هو الاديب الفرنساوي صاحب رواية (حلاق اشبيلية) و (زواج فيغارو) وقد انتقد في الروايتين المذكورتين على اخلاق المعاصرين وفساد آدابهم وصوّر فيهما ما يشبه مجون ابي نواس :

ولم يتداخل كل منهما في الحادثة التي تخصه الا لاصلاح ذات البين . فيظهر الواحد منهما على المرسح بهيئة الكمال والوقار وعيون المتفرجين ترمقه بالاستحسان والاعتبار . ومع ذلك فوجوده في الرواية مما يقربها لفن المضحكات

ومن روايات شكسبير المشهورة ايضاً هاملت وهو اسم ولد الملك من ملوك الدانيمارك في قديم الزمان . وخلاصة الرواية ان ام هاملت اتفقت مع عمه وهو اخ الملك وكان شاباً حسن المنظر فسقى الملك سما وتولى مكانه وتزوّج ام هاملت فانتقم هاملت من عمه وقتله . وكان لهاملت معشوقة بديعة الحسن تلاهى عنها بتدبير الحيل في طلب الانتقام فماتت كمداً . وابلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حفار القبور وهم يحفرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة ويتنادمون . فالنكات الفلسفية التي يفوه بها حفار القبور مما يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من ابكى المبكيات . وقتل الملك على الوجه المتقدم له امثال في التاريخ . منها قتل ام خالد بن يزيد لمروان بن الحكم في الدولة الاموية . ولم تزل الممثلة الشهيرة ساره برنار تمثل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ليكلون) التي نظمها شاعر العصر ادمون روستان . ومن روايات شكسبير ايضاً ما قبت وهو قائد لجيوش دونقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكليز . قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م . فصور الشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة الكلام فيها : ان ما قبت اجتاز يوماً مع رفيق له بمفازة مقفرة فمرّا بثلاث عجائز ساحرات كانهن جنيات

فقالت احداهنّ : ــ السلام عليك يا ما قبت يا امير غلاميس

وقالت الثانية : ــ السلام عليك يا ما قبت يا امير قاودور

وقالت الثالثة : ــ السلام عليك يا ما قبت يا من سيكون ملكاً على ايقوسيا

فقال رفيقه بانقو : ــ اعوذ بالله منكن اي النسوة انتن ؟ امن الانس ام من الجان ؟ تفاءلتن بكل خير لرفيقي ولم تتبئني بشيء

فقالت كبراهن : ــ اما انت فنخبرك باحسن مما اخبرنا به رفيقك لان عاقبته مشئومة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . واما نسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد الملك فيهم . قلن ذلك واختفين كلمح البصر . وكان الامر كما تنبأن به

ففي يوم من الايام نزل الملك دونقان مع بعض خواصه عند ما قبت فبالغ لهم في

الضيافة والاكرام وفرش للملك في مخدع ولقرنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة ماقبث حريصة على تحقيق ما اخبرت به الساحرات فحرضت زوجها على قتل ضيفه وسيده . فدخل في ظلام الليل الحالك واخذ خنجراً لاحد القرناء وهم غارقون في النوم وغطسه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فتداركت زوجته الامر ودخلت المخدع وغرفت بيدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائه وايديهم لاتهامهم بايقاع الجرم . فتمت الحيلة وجلس ماقبث وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع ليدى ماقبث ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في الفصل الاخير من روايته بابدع اسلوب وابلغ تعبير . واخرجها على المرسح حاملة مشعلاً وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك بيديها كانها لم تنق من لطخ الدماء ولا ذهبت الرائحة منها مع ما تطيبت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور وتحسب زوجها معها فتقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقال من اصفرار لونك الخ ... ومن روايات شكسبير ايضاً اوتيلو بين فيها غيرة الزواج وشدته على زوجته . وترجمها نظماً للفرنساوية الفرد دوفينية وله غير ذلك من الروايات

وجل شكسبير في تصوير اخلاق الرجال وتوصيفهم وبيان المزايا الخاصة بكل فرد من افرادهم . فسلك في الادب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان ونبذ وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية الى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولاتهافت على التشابيه والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان ويمليه عليه الضمير ويصور الاحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والجود والكرم الى طور الغضب والبطش والاستبداد وبين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتجبر والتفاخر والتكاثر الى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الانسان من الاخلاق والطبائع ويظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسة جلية ليس فيها تصنع ولا تعمل

ثم نبغ في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ ـ ١٦٧٤ م وكان كاتباً لقرومويل الشهير فلما مات وانقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاملى على زوجته وبنتيه كتاب « الجنة الضايعة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من احسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابدع ما الفه

شعراء الامم الاوروبية بعد كتاب (المضحكة الالهية) المشابه لرسالة الغفران

فتحسنت اللغة الانكليزية واتسعت دائرة الادب والتخيلات الشعرية فيها ومال ادباؤها لقراءة الاشعار القومية الدارجة التي نظمها في القرون الوسطى التروبادور والزوفير وهم من شعراء الربابة المعاصرين لعرب الاندلس واوجدوا للشعر شكلاً جديداً واسلوباً مبتكراً . ونبغ فيهم مثل شلي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢ م) وزوجته واللورد بايرون وكان ذا نفس عالٍ وتخيل واسع فنظم القصائد المعروفة بالشرقيات وتشيع فيها لليونان تشيع العجم للسادات وتفاني في حبهم ولم يزل غرام العشق يلعب برأسه اثناء حرب المورة الى ان حطه العشق والهيام من اعلى قصور لوندره الى اسفل اكواخ ميسولونكي وهي قرية على ساحل خليج قورنت الفاصل بين شبه جزيرة المورة وبقية بلاد اليونان . وبسبب وخامة تلك القرية وعدم نظافتها كان هواؤها فاسداً فاصابت الحمى الشاعر الانكليزي وعجلت بروحه الى الآخرة ونقلت جثته الى انكلترا واقيم له في ميسولونكي تمثال يشاهده السائح في تلك البقاع . فاللورد بايرون هو مؤسس الطريقة الرومانية باللغة الانكليزية وله في الشعر الدراماتيقي رواية ماتفرد نظمها في ايطاليا على نسق رواية فوست وذكر فيها السحر والارواح وخوارق الطبيعة وله ايضاً رواية دون جيان نظمها على اسلوب مبتكر . وكلتا الروايتين تمثلان الآن على المراسح الباريزية

ومن مشاهير ادباء الانكليز والترسقوت (١٧٧١ ـ ١٨٣٢) كتب بالانكليزية اكثر من سبعين قصة تاريخية بين سني ٨١٤ او ١٨٣٢ كلها في غاية التدقيق عول عليها المؤرخون ومنهم ميشله المؤرخ الشهير . لان صاحب القصص له في الوقائع التاريخية نظر دقيق وشروح وافية قلما يتيسر للمؤرخ الاحاطة بها ونسج على منوال والترسقوت في القصص التاريخية وليم غودوين . ثم ظهر في عالم التحرير المؤلف النحرير والدبلومات الشهير بنيامين الاسرائيلي صاحب القصص السياسية وهو اشتهر في التاريخ باسم اللورد بيونسفيلد ونبغ في فنون الادب والسياسة وساح سنة ١٨٣٩ في ايطاليا واليونان و بلاد الارناؤوط و بر الاناضول وسوريا ومصر والحبشة ونشر كتب سياحاته على طرز قصصيّ و بين فيها آراءه السياسية وعرب المقتطف بتصرف قصة سياحته في سورية وفلسطين وله قصة اخرى عنوانها اسكندر بك الارناؤوط . وصار هذا الاسرائيلي رئيساً لوزارة المحافظين وكان مخالفاً في السياسة لغلادستون رئيس حزب الاحرار . فثبت بيقونسفيلد امام مطامع روسيا وعارض في اجراء معاهدة اياستافانوس سنة ١٨٧٧ ولكنه طمع في

الاجرة على هذه الخدمة وربح اكثر من اللازم في تجارته وتوفي سنة ١٨٨١

فيفهم مما تقدم ان اول واضح لاساليب الطريقة الرومانية وليم شكسبير . ولكن اول ناسج على منوال هذه الطريقة ومظهر لمزاياها هم شعراء الالمان . وجميعهم من انكليز والمان وفرنساويين اقتبسوا افانين الادب من الاسبانيين والطليان المخالطين للعرب في القرون الوسطى

٣١ — الطريقة الرومانية عند الالمان والفرنساويين

اما الالمان فأقدم تأليف أدبي لهم أغاني هيلدبراند نظمت في القرن التاسع للميلاد بلسان الالمان كما نظمت أغاني رولان بلسان رومان . وفي القرن الثالث عشر جمع ديوان نيبلونجن كما جمعت قصة عنتر وذكر فيه الحروب التي حدثت بين قبائل نيبلونجن وبين اتيلا الذي هجم عليهم من الشرق وأبادهم . فهذا الديوان هو كتاب الحماسة الالمانية . ثم حدث الانقلاب الديني وظهر لوتر مؤسس أحكام الديانة البروتستانتية وترجم للالمانية الكتب المقدسة فاتسمت بذلك اللغة وتهذبت نوعاً ما وظهر نفر من الكتاب والشعراء والعلماء ومع ذلك استمر الالمان للقرن الثامن عشر للميلاد محرومين من فنون الادب المعتبرة عند الادباء . وكان الامراء والاعيان في المانيا مكبين على تحصيل الادب الفرنساوي وعلى حفظ الاشعار الفرنساوية والتمثل بها والتكلم بالفرنساوية في نوادي سمرهم ومجتمعاتهم وضيافاتهم تشبهاً بملوك بروسيا وبما في القصر الملوك ببرلين اذ الناس على دين ملوكهم . وكان لفريدريك الثاني ملك بروسيا اعجاب شديد بالشاعر الحكيم فولتر الفرنساوي فقربه اليه وأحله في قصره محلاً رفيعاً . والحاصل كانت بضاعة الادب الفرنساوي رائجة عند الالمانيين كراوجها عند الروس . وكرواجها أيضاً بعد حرب القرم في الاستانة العلية ومصر القاهرة . حضرت يوماً في مدرسة العلوم السياسية بباريس امتحان طالب تركي استانبولي أجاب جواباً مقبولاً عن اكثر الاسئلة التي القيت عليه بما يتعلق بأحوال فرانسا وشؤونها الداخلية اللازم معرفتها لابنائها . فلما انتبه له المعلم وسأله عن البوسنة والهرسك وعن أحوال مسلميها وجده لا يعرف شيئاً عنهما ولا يدري ان كان فيهما مسلمون ام لا . ورأيت في باريس تلميذاً مصرياً يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية و يتكلم العربية ولا يكتبها وله والدة تركية تحرر له المكاتيب باللغة العثمانية ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لا تكلماً ولا كتابة سوى بعض

عبارات متعارفة ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية فيتيسر لهما التفاهم والتكالم باللغة العربية التركية واما المخابرة التحريرية فلم يتمكنا منها الا بواسطة الترجمان والكاتب مع ان كليهما ليسا باميين بل هما على جانب من العلم والادب . فالانهماك باللغة الاجنبية ادى الى ان الولد اصبح لا يعرف لغة امه كما تجب معرفتها ادبياً وطبيعياً . لان لغة الأُم هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرنساويون (لانغ ماترنيل) ويسميها الاتراك (لسان مادر زاده) ومادر هي الام بالفارسية

وهكذا كانت الحال في المانيا بسبب تهافتهم على ادب اللغة الفرنساوية ففي الثلث الاخير من القرن الثامن عشر اي ما بين سني ١٧٧٠ ـ ١٧٨٠ م جاء ادباء الالمان بطرز جديد من الادب كان له رواج على مراسح اللعب واقبل الناس عليه اقبالاً عظيماً . مع ان الطرز الجديد الذي جاؤا به كان عارياً عن تلك الصور والاساليب البديعة التي في مؤلفات اهل الطريقة المدرسية وخالياً عن ذاك التصنع او التعمل الذي كانوا يتكلفون له ومجرداً عن تلك المحاسن التي كانوا يؤلفونها تاليفاً . وانما كان كلام الادباء الالمانيين في هذا الطرز الجديد صادراً عن تاثر وتهيج وانفعال في النفس . وعن احساس في القلب . فنفخ هذا الانفعال والاحساس الروح في كلامهم وصيره كلاماً حياً تألفه ارواح المستمعين وتحن اليه . ولم يقصد ادباء الالمان فيما الفوه الامتياز بالفضل والعلم بين الخواص وانما كانت غايتهم افهام كلامهم لعوام الناس ولجميع الاصناف من اولاد البلد الذين يقال لهم (بورجوا) . فمن اجل هذا عدلوا عن الاخذ بعالي الطبقة من الانشاء المصنع واستعملوا اللهجة المالوفة بين قومهم وابناء بلدهم وجعلوا اهتمامهم في نفخ روح الحياة في كلامهم وادخلوا فيه كل ما يحدث انفعالاً في النفس وتهيجاً في العواطف بغير تهافت على البديع من الالفاظ ولا على رعاية القواعد وصوروا في كلامهم الغرائب والعجائب التي تتشوق الاسماع لاستطلاع حقائقها ولا تطمئن القلوب الا بعد الوصول لنهايتها . فان الاذن تعشق بطبعها الاخبار ولذا نرى عوامنا في كل قطر وبلد يدورون وراء القصاص (الحكواتي) من قهوة الى اخرى ويتلذذون بسماع ما يتلوه عليهم من اخبار عنترة ابن شداد والزير ابي ليلى المهلهل والزناتي خليفه وعلي الزيبق عايق زمانه وقصة الملك سيف والملك زاد بخت بن شهرمان وجميع ما ورد في الف ليلة وليلة من الحكايات . واذا بات بطل الرواية في ضيق وكرب لا يهدأ بالهم ولا تنام اعينهم الا بعد تمام الخبر وفهم ما جرى له

وكان أدباء الالمان اذا الفوا رواية فاجعة أخذوا موضوعها مما يرونه في قومهم ويشاهدونه في بلادهم واذا بحثوا عن الوقائع التاريخية اختاروا مباحثهم من تواريخ القرون الوسطى لا سيما من القصص والحكايات الدارجة على السنة الامم الالمانية والجرمانية ترجيحاً لها على تواريخ القرون الاولى وعلى قصص اليونان والرومان • كما فعل كوته (١٧٤٩ — ١٨٣٣ م) شيخ أدباء الالمان فانه اختار فوست بطلا لروايته الشهيرة بهذا الاسم • وتداول اسم فوست على السنة العامة في المانيا وفي انكلتره قبل تأليف هذه الرواية الالمانية واشتهرت سيرته بين الناس بأنه من السحرة الذين باعوا الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين واختاروا بطلاً لروايةأخرى « اكمون » وهو أمير في البحر هولاندي الاصل اشتهر في تاريخ الالمان بخدمته لشارلكين وانتصاره على الفرنساويين وعلى ملكهم فرانسوا الاول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني • ومن بديع ما ألفه أيضاً الشاعر كوته قصة وارتر ثم ديوان الشرقيات (ديفان اورينتال) وهو مجموع أشعار نظمها على أسلوب غريب قلد فيها ديوان الحافظ الشيرازي احد مشاهير شعراء العجم المتوفى سنة ٧٩٤ هـ او ٧٩١ هجرية وكان الحافظ ممن اجتمع بتيمورلنك حينما ضبط شيراز وجرى بينهما لطائف مشهورة • وقد ترجم ديوان الحافظ للغات الاوروبية كما ترجمت مؤلفات الاكابر من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب الشهنامة المتقدم ذكرها ومثل الشيخ مصلح الدين سعدي صاحب الكلستان والبستان وترجمه الى الفرنساوية الموسيو باربيه دومينار مدير مدرسة الالسنة الشرقية بباريس • والكلستان مترجم الى العربية والتركية ويدرس في عموم المكاتب العثمانية وكان الصليبيون قد أسروا مؤلفه وحبسوه في طرابلس الشام وشغلوه في بناء الابراج المحيطة بها من جهة البحر • فرق له احد الاغنياء من أعيان حلب وافتداه بمال وخلصه من الاسر وكانت وفاته سنة ٦٩١ هـ • فافرنج زماننا يحترمون سعدي قدر ما احتقره اسلافهم وذكره فيكتور هوكو في مؤلفاته ونقل عنه • ومن مشاهير أدباء الالمان شيلر (١٧٥٩ — ١٨٠٥ م) وكان معاصراً لكوته ورفيقاً له فاتخذ وليم تل بطلاً لروايته المشهورة بهذا الاسم • وكان وليم تل المذكور رئيساً للعصبة التي خرجت في بلاد السويس على حكامها من النمساويين وحررت البلاد من قيد اسارتهم سنة ١٣٠٧ م • والمذكور من خبره في التاريخ ان الدوق اي والي بلاد السويس المعين من قبل امبراطور الالمان نصب ذات يوم عموداً في ساحة المدينة ورسم في رأسه تاج الدوقية وأمر الناس بالخضوع امامه • فرفض وليم

تل الانقياد لهذا الامر الذي فيه التحقير والاذلال لنوع الانسان مع ما اختصه الله به من الكرامة وورد في القرآن الشريف « ولقد كرمنا بني آدم » (١) • وكان وليم تل من أشد الابطال بأساً وأمهرهم رمياً بالنبل فغضب عليه الوالي وأحضره بين يديه وحكم عليه بوضع تفاحة على رأس ولده وفلذة كبده ورميها بالقوس والنشاب • ففعل ذلك وقلبه يتميز من الغيظ وأصاب الهدف بعد ان كان الخطاء أقرب اليه من الصواب • فصور الشاعر هذه القصة التاريخية وبين فيها عوامل الاستبداد وعدم صبر النفس الابية على الظلم والجور والاستعباد وكان شيلر يلقب بشاعر النساء والشبان لتأثير أقواله فيهم اكثر من تأثيرها في المتأدبين من الرجال المائلين الى التعمل والتصنع في الكلام والى الانشاء العالي الطبقة • لان كلامه كان سهلاً بسيطاً خالياً مما في الطريقة المدرسية من أصول الصك والسبك ومن أنواع البديع والاستعارات وفيه كثير من الالفاظ العامية والتراكيب المتداولة ولكنه كان على السامع أشد تأثيراً واخذاً بمجامع القلوب

فبعد ان كان الالمان في الادب عيالاً على الفرنساويين وليس عندهم من المؤلفات الادبية الا ما هو ترجمة او تقليد لما حرر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا أئمة في الادب يقتدي بهم وينسج على منوالهم • واشتهرت الطريقة التي سلكها كوته وشيلر وليستنغ ومن اقتفى أثرهم بالطريقة الرومانية نسبة للغة رومان — وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الرومانيين وموظفوهم الى بلاد الغولوا والسلت اي لفرنسا فتحرفت فيها وامتزجت بلسان الفرانك وانقلبت الى اللغة الفرنساوية الحالية • فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دوّن بلسان رومان من فني المنظوم والمنثور • وذلك مثل يمين ستراسبورغ وهو أقدم الابنية في لسان رومان ومثل رومان رولان ويقال لها أيضاً أغاني رولان ورومان ارثور ورومان المائدة المستديرة ورومان الثعلب ورومان السيد وكثير غير ذلك فكانت المحررات الرومانية اي المدونة بلغة رومان تعتبر من التآليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية وهي ما حرر باللغة اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين والقديسين والصلوات الدينية • فاللسان اللاتيني كان اذذاك لسان المدارس والكنائس والمعول عليه في العلم والدين وكان في سبكه تصنعٌ وتعملٌ ومراعاةٌ لقواعد

---

(١) ولقد كرّمنا بني آدمَ وحملناهم في البرّ والبحرِ ورزقناهم من الطيباتِ وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً • آية : (٧٠) سورة (١٧)

الغراماطيقي والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية . ويبلغون علوم الآلات في العربية الى اثني عشر علماً كما لا يخفى . فلغة رومان لم يكن فيها شيء من ذلك بل كانت على فطرتها الطبيعية وليس في سبك عباراتها أدنى تصنع ولا تهذيب . فلما اختار أدباء الالمان مواضيع رواياتهم من رومان القرون الوسطى ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريق أدبهم بالطريقة الرومانية . وأطلقت كلمة (رومانتيك) الفرنساوية على الادب المستحدث تسمية له باسم اجنبي كما أطلقت كلمة (فرانك) الجرمانية على قبائل الغولوا والسلت وقيل لهم فرنساويون

فطريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوكو تولدت في المانيا واشتهرت برقابتها للطريقة المدرسية وميلها لاظهار قريحة القرون الوسطى وتصوير أخلاق أهلها وعوائدهم وحماسة فرسانها وصلابتهم في الدين وتعصبهم للمذهب وتهورهم في المسائل ومبالغتهم في الاخبار وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات . وأراد أهل الطريقة الرومانيـة الفوز على أهل الطريقة المدرسية — لا بانتقاء الالفاظ وسبك العبارات وانسجام المعاني ومراعاة القواعد — بل بالاتيان بكل ما يحدث انفعـالاً في النفس ويفتح مجالاً للتصور والخيال . ولذا عمدوا الى القصص الدارجة على الالسن والمنقولة عن الاسلاف والجدود ووضعوها في قالب شعري والفوا بها رواياتهم وأهملوا أساطير القرون الاولى من الاسرائيليات والخرافات اليونانية والرومانية وجاء الفيلسوف الالماني هكل وفسر تفسيرًا فلسفياً حقيقة الطريقة الرومانية وهو يبحث في الصور المختلفة التي تغلب فيها العقل البشري فوجد فيها ثلاث طرق في صناعة الادب منذ نشأته الاولى الى زمانه وهي :

(١) الطريقة الرمزية (سيمبوليك)
(٢) الطريقة المدرسية
(٣) الطريقة الرومانية كما سنذكره

ويظهر الفرق بين الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية لكل مدقق حضر تمثيل رواية مؤلفة على نهج الطريقة المدرسية مثل مؤلفات راسين ومنها رواية (اندروماق) اليونانية و (استير) و (اتالي) الاسرائيليتين ومثل مؤلفات قورنيل

ومنها (هوراس) وهي رواية الاخوة الثلاثة الرومانيين ثم حضر في مراسح الاستانة وأزمير او مراسح مصر وأوربا تمثيل رواية فوست مثلاً . فأول ما يشاهد عند رفع الستار شيخ عليه الهيبة والوقار جالس على كرسي في غرفة المطالعة وامامه مائدة تراكمت فوقها الكتب والدفاتر والاقلام والمحابر وهو يفكر فيما يكون اليه المرجع والمآب ويقلب على ضوء السراج اوراق الكتاب الذي خط فيه جابر ومسلمة علوم السحر والكيمياء ويتلهف على أيام الشباب وزمن التصابي ويقول :

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالحسر للعلماء

وبعد ان يستولي اليأس على هذا الشيخ الفاني ينفخ في رأسه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ويحرضه على دعوة الشيطان اليه وتلاوة العزائم عليه فبأسرار التلاوات وخواص الطلسمات يظهر صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها وهو خادم من الجنة ويعلمه ما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الآخرة بالدنيا ويشتري بالضلالة بالهدى ويتعلم منه ما يعيد الشباب والغناء ولعل ذلك بواسطة الاكسير الذي من خواصه اعادة الشباب وقلب المعادن الى الذهب على زعم المتقدمين فينهمك الشيخ فوست في اللذات ويغرق في الهناء والمسرات ويعشق بنتاً يقال لها مارغريت فيراودها عن نفسها ويفرق بسحره بينها وبين أمها ويستهويها بالجواهر واللآلي ويطغيها الشيطان ..... فتستحق لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . فيغتاظ اخو مارغريت من عهر اخته ويقف لعاشقها بالمرصاد ويبارزه بالسيف فيقتل بوخزة خفية من ذاك الخادم الجني المرافق لفوست . فتستحي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرشد منها فتقتل الولد الذي حملت به من فوست ويأخذها حاكم البلد بما جنت يداها ويلقيها في السجن فيأتي عاشقها لتهرب بها وهذه أشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة وعوامل الندامة من أخرى فلا تجد لها ملجأ غير رحمة الله التي وسعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها وتتوب الى الله توبة خالصة . واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام

عليكم كتبَ على نفسهِ الرَّحمةَ أنهُ مَن عملَ مِنكمْ سوأً بجهالةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعدهِ وأصلحَ فإنهُ غفورٌ رحيمٌ (١) . فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر ويقبضها اليه فتخر ميتة وتذهب نفسها الناطقة الخالدة الى عالم الارواح على شكل الحمامة التي وصفها ابن سينا بقوله

هبطت اليه من المحل الارفع ورقـاء ذات تعـزز وتمنع

وتنشق في آخر الليل سماء المرسح وتظهر مارغريت بأبهى الحلى والحلل في أعلى عليين بجانب اخواتها تحف بهن الملائكة المربون . وفوست ينظر اليها والعبرات تسيل من عينيه . واختلفوا في فوست فقالت طائفة بأنه من الهالكين ومقره في الدرك الاسفل من النار . وقالت طائفة أخرى لابل استشهد في الحب وتاب الى الله فتاب الله عليه والله خير التوابين . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيماً . انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً (٢)

ويرى المتفرج على هذه الرواية افعال السحر والسحارات المكارات اللواتي يطبخن المواد السحرية في القدر ويصبنها بين المفارق ليسحرن المارين في الطرق ويرى أيضاً أعمال الشيطان الرجيم وغوايته لمن يتبعه من الانس ومقدرته على خرق العوائد واظهار العجائب وحكمه في هذه الدنيا الدنية الفاسدة وكيفية استعاذة النصاري منه بالصليب ولذا جعل أهل القرون الوسطى قبضات سيوفهم على شكل الصليب ليتعوذوا بها من شر الشيطان الرجيم . وبهذا يكون السيف قاطعاً بقبضته في الروحانيات وبحده في الماديات

ولما ذهب نابوليون الاول بعساكره الى بروسيا اجتمع في برلين بانشاء كوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلاً وعجب به واحسن عليه بنيشان لافتخار فاتجهت نحو مؤلفاته افكار الادباء من الفرنساويين كما اتجهت قبلاً افكار ادباء الالمان نحو مؤلفات فولتير حينما كان في سراي برلين من المقربين وكانت اساليب

(١) سورة الانعام آية ٥٤ (٢) سورة النساء آيه ١٦

الطريقة الرومانية دخلت فرانسا على عهد نابوليون الاول بواسطة شاتوبريان وما دام دوستايل

اما الاول فهو الامام الذي اقتدي به في الادب فيكتور هوكو وقال : « أما ان اكون شاتوبريان اولاشي » . واسمه فرانسوا رينه فيقونت دوشاتوبريان نسبة لشاتوبريان اي لقصر بريان المشيد على نهر لوار بالقرب من نانت . وحيث كان من اشراف العائلات ذهب ايام الانقلاب الكبير الى اميركا وساح بين اهاليها المتوحشين وعاد منها لانكلترا ثم لفرانسا ونشر قصة (اتلا) وذكر فيها ما شاهده في سياحته من عجائب الامم المتوحشة . ثم نشر قصة (رينه) وقص فيها اخبار نفسه وبين افكاره وانفعالاته بسبب ما كشف له من الحقائق المزعجة . وامتاز بين الكتاب برونق الانشاء وكثرة التصورات والاحساسات وبشدة الهيام وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الادب ونشر حينئذ (حكمة الديانة المسيحية) واقبل على تدقيق هذا الدين وخرج لمشاهدة الاماكن التي ظهر فيها والبلاد التي انتشر بين اهاليها فساح في اقطار فلسطين وسوريا ومصر وبر الاناضول ونشر سنة ١٨٠٩ كتاب الشهداء وبين فيه كيفية ظهور الدين المسيحي على الدين الوثني ونشر سنة ١٨١١ (دليل السياحة من باريس الى القدس) وعرف الفرنساويين بشؤون القرون الوسطى بعد ان كان ادباؤهم مشغوفين بتعريف القرون الاولى وبتقليد ادباء اليونان والرومان . وكانت جريدة الديبا المشهورة بحسن الانشا وجودة التحرير حديثة الظهور فاقبل على التحرير فيها وبرع في قوة التصوير والوصف والتلوين وكان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور اسايب الطريقة الرومانية . ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية وتعين سفيراً ثم ناظراً للخارجية

اما المادام دوستايل فهي بنت الوزير نيكر الشهير . اشتغلت بالعلوم والمعارف كما هي عادة سيدات النساء في ذاك العصر ونبغت في فنون الادب واصبحت عالمة فاضلة يشار اليها بالبنان . فحررت سنة ١٨١٠ م كتاباً مفيداً عن المانيا . وكتبت عن الادب باعتبار ما له من العلائق بتشكيل الهيئة الاجتماعية . فدرست درساً فلسفيا

ادب اليونان واللاتين . و بينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول أهل الشمال من عقول أهل الجنوب . وذكرت الخواص المميزة لكل من الادب الطلياني والاسباني والانكليزي والالماني . وما لكل منهما من العلائق بالفكر السياسي والادبي . وشرحت تأثير الدين والاخلاق والشرائع على فنون الادب . وأستنتجت من تدقيقاتها العميقة ان الفكر البشري تابع لناموس الارتقاء مع المعاني الاخلاقية والفلسفية والعلمية والسياسية . . . . . الخ ولكنه لم يتبع ناموس هذا الارتقاء في التخيلات الشعرية ولا في التصورات الخيالية . فعندها ان الشاعر كوميروس مثلاً لا يذهب رونق كلامه وطلاوته ولا في عصر من العصور ولا يسمح به الدهر مرة اخرى

ثم ظهر لامارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان التفكرات الشعرية فكان اول بناء من ابنية الشعر الجديد الموسيقي (ايريك) وخالف فيه اساليب من تقدمه كما خالف المتنبي اساليب الشعراء الجاهلية . واشتمل ديوان لامارتين على تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب وتجليات لطيفة ووصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفاً بديعاً . ومن أحسن ما نظمه قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظماً للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيانا و باريس سابقاً . وفهمت بان احمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعربية . وساح لامارتين في الشرق وأحسن عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفلك) في ولاية ازمير فمكث فيها وفي ربى لبنان وحرر سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات ونظم ديوان الالحان الشعرية والدينية وغيرها

٣٣ — ظهور فيكتور هوكو

فجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنساويين وغير الفرنساويين تقدموا على فيكتور هوكو او عاصروه ومهدوا له طريق الادب الجديد . وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تائقة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر ولحصول

انقلاب في الادب كما حصل انقلاب في السياسة . لان النشئة الجديدة من الخواص كانوا نافرين من قيود الطريقة المدرسية . وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد أصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية . فان رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا أساس الدين وسببوا حدوث الفوضوية في الامة . أي انهم افرطوا في جانب الدين والسياسة كما فرط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين . فكان الجمهور يترقب ظهور امام في الادب يعيد لهم الرجاء والامل بالله . والشعراء يترقبون ظهور هذا الامام ليخلص فن الادب من القيود الذي قيده بها بوالو في كتابه المسمى (آربوتيك) أي صناعة الشعر . فكانوا يتمنون كسر هذه القيود واعطاء الحرية التامة للفكر كما كسرت سلاسل الاستبداد وهدم بيت المظالم الا وهو حبس الباستيلية الشهير واطلق سراح المحبوسين فيه ظلماً وعدواناً

فظهر فيكتور هوكو وبرع في اللغة الفرنساوية وفي طرق الافادة بها . وفضلاً عن معرفته بالمفردات والتراكيب اللغوية صار له خبرة بما للكلمات من القيمة الموسيقية اي بالنغمة التي تحدثها كل كلمة والتأثير الذي يحصل من جمع نغمات الكلمات وألحانها . لان الكلمة عند خروجها من الفم لها نغمة مخصوصة ولحن بحسب مخارج الحروف . وتختلف المخارج باختلاف الالسنة ولذا ورد في الحديث الشريف (اقرؤا القرآن بلحون العرب)

وقد عبر أئمة البلاغة من العرب عن هذه القيمة الموسيقية (باجراس الكلام) ولايخفى مافي هذا التعبير من الحلاوة لان الصوت يرن بالالفاظ رنة الجرس . وصار لفيكتور هوكو أيضاً مهارة بعلم القوافي . فقوافيه عامرة مختلفة ليس فيها ماهو مكرر او مبتذل بل جميعها ترد على غير ماينتظره السامع . والخلاصة كان يعرف أي كلمة يلزم وضعها في أي بيت وأي بيت يقتضي التقاؤه لاي موضوع . وساعده الحظ في السفر الى رياض الاندلس التي تتغذى القرائح بنفحات ازهارها وتقر العيون بحسن مناظرها . فصار ذهنه كأنه آلة بديعة تفي بوظيفة السيناتوغراف والفوتوغراف معا . فيصور مايمر به من مشاهد الكون ويطبع مايسمعه من حوادث الدهر ويعرضه

على القراء والمستمعين بدون ان يضيع منه خبرًا او يغفل منظرًا . فصور في أشعاره الحمائل وهي الشجر المجتمع الكثيف وكيفية تلاعب النسيم باوراقها والاغصان الملتفة وما ترسمه على بساط المرج الاخضر من الظل الظليل والجبال الراسية وما ينحدر عنها من الماء السلسبيل والانهار الجارية وما ينعكس على مرآة سطحها من ضياء القمر وشعاع الشمس . ووصف صفير البلابل وهديل الحمام و بغام الظباء وسجع اليمام وذكر غدوها ورواحها ما بين الرياض المزهرة والاشجار المثمرة والجداول المنحدرة وصور غير ذلك أيضًا تصويرًا حقيقيًا باوضح بيان وافصح تعبير حتى يخال لمن يقرأ أشعاره انه ينظر الى لوح من الالواح المصورة بقلم الرسام وفرشاته . ويسمع خرير الماء وصوت مزمار الراعي وهو يتناقص كلما ابتعد مع محبوبته في جوف الغابة . وجعل الالفاظ تلبس المعاني كما يلبس الثوب على الجسم فجاءت الفاظه طبقًا على معانيه . وكان بمجرد نظره في المواد تتفجر المعاني من قريحته فيزنها بميزان الحس ويصوغ لها على قدرها قوالب من الالفاظ والتراكيب كاحسن صائغ للحلى وامهر سباك للمعادن . فكانت طريقته بادىء الامر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة ثم هجم على قواعد المتقدمين وأساليبهم هجمة الامة المستيقظة من غفلتها وكسر القيود التي قيدها بوالو عقول الشعراء ونبذ قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره وأصلح عروض الشعر الفرنساوي وغير تركيبه بمقاطيع مختلفة وجوز تكميل معنى البيت بالبيت الذي بعده فوضع الجملة الواحدة في بيتين مما لم يجوزه المتقدمون وجعل نظم الشعر موافقًا لاحتياجات الفكر . وفتح لاخوانه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الادب كانوا هائبين اقتحامها والولوج فيها

فأوجد فيكتور هوكو بذلك الطريقة الرومانية وحاد فيها عن استعارات الطريقة المدرسية وتشبيهاتها القديمة . ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالاً لينسج عليه كما فعل اندره شينيه خاتمة أهل الطريقة المدرسية . بل اتخذ السوق الطبيعي والاحساس الباطني دليلاً له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري وأهل طريقتهما الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين . فكلما شعر فيكتور هوكو بشيء صوره

بقلمه كما يحس به في قلبه بدون تهافت منه على ترصيع الكلام بجواهر البديع وتدبيجه بحلل المجاز والتشابيه . فان أتى بشيء منها في كلامه عفوًا بلا تصنع ولا تكلف فنعم . والا فهو لا يهتم الا بالمعاني وبما يتخيله فيها من حقائق الشعر واذا أراد تعيين الزمان مثلاً لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المصنعة ولم يذكر حركات العقرب على مينا الساعة ولا شبه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس بل قال بسوقه الطبيعي:

« غدًا اليوم الخامس والعشرون من حزيران سنة الف وستمائة وسبع وخمسين ... » كما ورد في مطلع رواية قرومويل وهي من الروايات التشخيصية المنظومة شعرًا . فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان . وهذه الشطرة المطابقة الحال أبلغ من سواها . ومن المثال السابق الذي مثلنا به من كلام اندره شينيه . فكان السالك نهجَ هذه الطريقة اذا عطش قال هات اسقني كما قال أبو نواس

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا أمكن الجهرُ

وأما السالك نهج الطريقة المدرسية فكان يحيد عن السوق الطبيعي ويصنع كلامه ويقول « ألا ماء بارد نطفي به حرارة جوفنا » كما قال ذاك البارد المتنحي

فايضاحًا لحقيقة الطريقة الرومانية لانرى بدًّا من تلخيص القواعد التي أوردها بوالو في صناعة الشعر ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوكو في مقدمة رواية كرومويل وعارض فيها بوالو وجميع المنتسبين للطريقة المدرسية

٣٣ — طريقة بوالو

نظم الشاعر الفرنساوي بوالو كتابه الموسوم بصناعة الشعر سنة ١٦٧٤ م وهي أرجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وانواعه . اعتنى الشاعر في انشائها كثيرًا وفكر فيها طويلاً لتكون قاعدة ونموذجًا في الشعر واقتفى في نظمها وتأليفها اثر الشاعر اللاتيني هوراس وهو نقل عن أرسطوطاليس في كتابه الموسوم بصناعة الشعر ولارسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد ابن رشد وطبع هذا التلخيص المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانسه من

ايطاليا سنة ١٨٧٣ ولا نظن بوالو اطلع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث لان الافرنج لم يكن لهم الفة بأدب العرب في القرن السابع عشر وانما كانت عنايتهم باللغة العربية قبل ذلك حينما ترجموا كتب علمها الى اللاتينية ولم يعودوا لدرسها الا في اواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيلفستر دوساسي في باريس وشرح مقامات الحريري وألف الكتب المعتبرة . ولما ظهر ضيا باشا من متأخري الادباء العثمانيين وقرأ العربية ثم الفرنساوية اقتفى اثر بوالو ونظم بالتركية كتابه المعروف بالخرابات وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس والعرب . فجاء كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها تخريب الخرابات وخطأه في كثير من مباحثه

فالفصل الاول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد التي اجملناها في الكلام على الطريقة المدرسية . واكثر المؤلف في هذا الفصل من الحض على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الآلات . وحذّر كثيراً من الابتعاد عن سلامة الذوق ولو قدر شبر . وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على أفانين الشعر المختلفة وعرف كل فن منها على حدته و بلغت فنون الشعر عنده الى نحو أربعة عشر فناً . منها أنواع الغزل والتشبيب والمرقصات والمطربات وما احتوى على ذل العشق ورقة الكلام والادوار المنسوجة على منوال شعراء التروبادور المعاصرين للاندلسيين . ومنها أنواع المدح وأنواع الهجاء والهزل والسخرية والذم المشابه للمدح ومنها أنواع الرثاء ونحو ذلك . وتكلم أيضاً عن الروايات التمثيلية وهي (التراجيديا) أي الفاجعات و(الكوميديا) اي المضحكات وعرف كلاً منهما و بين الشروط المقتضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل . وعرف الشعر الموسيقي وهو النشيد والتلحين المسمى عندهم (ليريك) من كلمة ايرو هي العود الذي يغنى عليه . وعرف أيضاً الشعر الحماسي المسمى عندهم (إيبو به) ومعناها في الاصل الخطبة التي يقولها الخطيب

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية أي المتفردة

في ذات صاحبها . وذلك أن الشاعر يرى الحسناء فيشعر بالحب و بأمل الوصال . ويظهر له رقيب فيشعر ببغضه و بانقطاع رجائه من الوصال . و ينال معروف الكريم فيشعر بالشكر له . ويموت صديق له فيشعر بالتفجع عليه . فبسبب هذه المشاعر تفيض نفس الشاعر بالغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء . و يشاهد أيضاً بدائع المخلوقات و ينظر في خلق الارض والسموات فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل والتقديس والترتيل . فكل واحد مما ذكر فن من أفانين الشعر الموسيقي . ويختلف عروض كل منها وقوافيه باختلاف المشاعر التي يشعر بها واختلاف الالهام الذي يهبط عليه . و يعتريه من ذلك دهشة أو اندهال وحيرة وسرور وانشراح أو انقباض وحزن فيظهر اثر ماذكر في نظمه وشعره

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان . فقولنا رواية أي خبر يفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي لانه نشيد وغناء وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام لان أساسه العمل . ولا يلتبس بالتاريخ الذي هو خبر و رواية أيضاً لان موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا اطراء ولا غلو . واما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر الفروسية واشهر كتب الحماسة الايلياذة والاوذيسة لهوميروس اليوناني . و (انييد) لفرجيل اللاتيني . والكوميدية الالهية لدانتي الطلياني . والجنة الضائعة لملتون الانكليزي . وتخليص اورشليم لطاسو الطلياني وهانرياد لفولتير الفرنساوي والحماسة النابوليونية لفيكتور هوكو . وعند أهل الشرق ماهابهاراته و راماياته للهنود والشهنامه للفرس وكتب الحماسة للعرب واشهرها كتاب الحماسة لابي تمام حبيب ابن اوس الطائي وقد طبعه مع شرح أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه المستشرق الالماني فريتغ سنة ١٨٢٨ في مطبعة مدينة بونه . والجزء الاول من عكاظ الادب هو في الحماسة الحميدية فهو (ايبوبة) الحرب اليونانية الاخيرة كما حرر فيكتور هوكو الايبوبة النابوليونية . ومن أمعن النظر في الشعر العربي وجد اكثره من قبيل الشعر الموسيقي أي النشيد والاغاني وهو الممتاز بخاصته الشخصية و باظهار الحواس الباطنة

ووجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان . ووجد المقامات تشابه ما عند الافرنج من فن الكوميديا . غير ان صاحب المقامات جعل اهتمامه في انتقاء الالفاظ و بلاغة التعبير ولم يلتفت كصاحب الكوميديا لدرس اخلاق الرجال و بيان المزايا الخاصة بافراد القوم او الهيئة الاجتماعية . وكان الباحثون في ادب العرب لا يجدون فيه مثالا « للدرام » الآتي تعريفه فجاء عبد الرحيم افندي احمد وعرض على المستشرقين في المؤتمر الحادي عشر المنعقد سنة ١٨٩٧ م في باريس رسالة الغفران المعري و بين مشابهتها بالكوميديا الالهية ووعد بنشرها . وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ رسالة الغفران المذكورة سنة ١٣٠٧ هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة الكوپريلي وهي تجاه نظارة المعارف وتربة السلطان محمود في الاستانة . وهم اذ ذاك بطبعها فحال دونه سفره لبلاد الاكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس الكردي وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من ابنائه امثال صلاح الدين الايوبي صاحب الفتح القدسي . فاذا نشرت رسالة الغفران كما تطبع ترجمة الاپلياذة الآن في مطبعة الهلال تمكن قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في ادب العرب غير الشعر الموسيقي والشعر الحماسي . والمأمول ممن ينشر رسالة الغفران ان يقابل بين النسخة المصرية والنسخة الاستانبولية لكيلا يقف ذهن المطالع كما حصل في المثال المنقول سابقاً من كتاب اعجاز القرآن للباقلاني بسبب وجود بياض في الاصل . ومن دقق النظر في لزوميات المعري عرف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الفكر واتساع القريحة ولم يشتبه في ان كتابه الموسوم بالايك والغصون لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والادب الا أحصاها . وقد أطنب المؤرخون في كلامهم على كتاب الايك والغصون وزعموا انه في ماية مجلد . ولكن اذا نظرنا في قولهم ان اللزوميات في خمسة مجلدات ثم رأينا مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في مجلدين حملنا ذلك على الظن بأن المائة مجلد من كتاب الايك والغصون هي بمثابة عشرين مجلداً من اللزوميات طبعة الهند او أربعين مجلداً طبعة مصر . وعلى كل فهو

من أعظم دوائر المعارف الادبية في لسان العرب . ولا يعجز عن الاتيان بمثلها رهين المحبسين . والايك هو الشجر الكثير الملتف فكانه أشار بهذا الاسم الى ان الكتاب شامل لاصول الادب وفروعه

ثم ان بوالو بعد مافرغ من بيان القواعد العمومية للشعر وبيان فنونه ولزوم اتباع الصدق والحقيقة فيه ذكر في الفصل الرابع من كتابه في صناعة الشعر ما ينبغي ان يتخلق به الشاعر من الاخلاق الحميدة وما يجب ان يحض عليه من الخير والمعروف . فاعترضوا عليه بذلك وقالوا بأن هذا الفصل من مباحث علم الاخلاق لا من مباحث الشعر والادب . ولاموه أيضاً على اعتباره الشعر في مجرد قوالب الالفاظ وعلى تحديده بالحدود والتعاريف والزام الشاعر بمراعاة هذه الحدود في كل فن من فنونه وعدم الخروج عنها . وقالوا بأن الشعر هو الهام من الله والطبيعة ونور يفيض على القريحة التي فيها استعداد طبيعي لقبوله ولا يمكن تعليم ذلك ولا تحديده بالحدود والتعاريف والصحيح ان بوالو يعترف بأن أساس الفكر اي المعاني الشعرية لايمكن تعليمها بالقواعد ويقول بأنها هبة من الله واستعداد فطري وغريزي في قريحة الشاعر . وانما الذي يدخل عنده تحت القواعد المذكورة هو شكل التعبير اي قوالب الالفاظ التي تقاد بها تلك المعاني الشعرية

٣٦ — هوكو والادب الفرنساري

ولما ألف فيكتور هوكو رواية كرومويل التمثيلية سنة ١٨٢٧ وضع لها مقدمة بين فيها ما هو الاساس الذي انشأ عليه ابنية اوراقه وما هو أصل الشجرة التي اثمر فرعها فاكهة روايته . كما وضع المعري مقدمة للزوم ما لا يلزم وافتتحها بقوله « كان من سوالف الاقضية اني أنشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب والميط » . ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب وبين اللوازم التي تلزم القافية بدون أن يفتقر اليها حشو البيت وأتى لها بالامثال والشواهد المعتبرة من كلام الحكمة والموعظة الحسنة كما هو مفصل في بابه . فخلاصة مقدمة كرومويل :

ان الانسان منذ النشأة الاولى الى الزمان الحاضر تقلب باعتبار التمدن أي الحضارة والعمران في ثلاث ادوار : (١) القرون الابتدائية. (٢) القرون القديمة (٣) القرون الاخيرة . وحيث كان الشعر سابقاً على الاجتماع الانسان وملازماً له فقد تقلب معه أيضاً في ثلاثة أشكال :

(١) الشعر الموسيقي أي الغناء [١] (ليريك)

(٢) الشعر الحماسي أي الحماسة (ابيك)

(٣) الشعر الدراماتيقي أي الهائلة (دراماتيك)

وذلك ان الانسان لما انتبه في القرون الابتدائية لعوالم الموجودات — وكانت قريبة عهد بالحدوث — انتبه معه الشعر . فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات واسكرته الدهشة حتى لم يكن أول كلامه الا « هيالة » . وكان تفكره تجلياً وجذباً وتصوره وحياً لقربه من موجد الكائنات وهو الله . فكان يناجي بقلبه ويهلل بلسانه كما يتنفس برئتيه . ولم يكن لعوده الا ثلاثة اوتار الخالق والنفس والمخلوقات. [٢] غير أن هذا السر الثلاث يشمل كل ما في الوجود . وكانت الارض مقفرة تقريباً وليس عليها من بني آدم الا بطون وفصائل ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب وكان لهم آباء لا ملوك . وكل عرق من عروق البشر متمتع ببقائه ولا معرفة لافراده بالملكية ولا بالشريعة ولا بالخصومة ولا بالحرب . بل الكل لكل واحد وللكل . فكان الاجتماع الانساني شركة لا شيء فيها يضايق أفراد الانسان . فكانوا

---

(١) قد يتغنى المرء بالشعر الحماسي ايضاً . لان الغناء انما هو تلحين الشعر موسيقياً كان او حماسياً . ولكن الغالب في الغناء اظهار ما في نفس الانسان من الحس والشعور ولذا خصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية وكتاب الاغاني ألفه ابو الفرج الاصفهاني مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد . ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء فهو ديوان العرب

(٢) لايخفى ان فيكتور هوكو حينما الف رواية كرومويل كان من حزب الملوكيين المتمسكين بالدين الكاثوليكي ولذا فهو يرى التثليث في كل امر ومسئلة

يعيشون عيشة الرعاة والبداوة التي ابتدأ منها كل تمدن وعمران . وهذه المعيشة أوفق ما يكون لسائحات الفكر وهواجس القلب . فكانت نفس الانسان سائحة على جناح الاهواء سابحة في بحر الخيالات وفكره اشبه بسحابة تسيرها الرياح وتغير شكلها ووجهتها بحسب مهبها . فهذا هو الانسان الاول . وهذا هو الشاعر الاول . فهو شاب وموسيقي . ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء وشعره الغناء . فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو « سفر التكوين »

ثم زال عن الانسانية هذا الشاب رويداً رويداً . واتسعت فيها جميع الدوائر . وصار البطن قبيلة والقبيلة شعباً وامةً . واحتشد كل مجتمع من هذا الاجتماع الانساني العظيم حول مركز مشترك وتأسست الممالك . وحلت طبيعة العمران محل طبيعة البداوة . وتبدلت الخيام بالقصور ومحطات الرجال بالمدائن وتابوت العهد بالهيكل . وأصبح رؤساء هذه الدول المستحدثة رعاةً — المواشي — بل للشعوب والامم . وتبدلت عصا الرعاية بصولجان الملك . ووقف كل شيء وتعين . واخذ الدين شكلاً مخصوصاً وانقلبت الصلاة من المعنى اللغوي الى المعنى المصطلح عليه عند أهل كل مذهب . وتعينت أقوالها وأفعالها بحسب ذاك المذهب . وضرب الاعتقاد نطاقه على العبادة . وعلى هذا الوجه اقتسم الكاهن والملك أبوة الشعب . وعلى هذا الوجه قامت مقام الشركة الابوية الجمعية الثيوقراتية وهي الدولة الجامعة أحكامها بين الديانة والسياسة . وازدحمت الشعوب والامم على سطح الكرة فتضايقوا وتخاصموا وانتشبت بينهم الحروب واصطدمت الممالك بعضها ببعض وطغى قوم على قوم فاوجب هذا الطغيان مهاجرة الشعوب والامم وتغريبهم ورحلاتهم وتصور الشعر هذه الوقائع العظيمة . وانتقل بذلك من الافكار الى الاشياء وتغنى بالقرون والشعوب والممالك وصار حماسةً وولد هوميروس . فهذا الشاعر في الحقيقة أحسن معرف للاجتماع الانساني في القرون القديمة . وكل ما في هذا الاجتماع بسيط وحماسي . والشعر عندهم دين والدين شريعة أي قانون . فبعد بكارة الدور الاول ظهرت طهارة الدور الثاني من ادوار الانسانية . واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الاخلاق البيتية

والاخلاق العمومية . ولم تحفظ الشعوب من عوائد بداوتها الاحرمة الغريب ورعاية ابن السبيل . وصار للعائلة وطن يربطها ونشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور . فالتعبير عن مثل هذا التمدن لايمكن ان يكون باشعار الحماسة . وتقلبت اشعار الحماسة في اشكال كثيرة بدون ان تضيع خاصتها المميزة لها . فاذا تأملنا كلام الشاعر اليوناني بندار وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقب بأمير الشعراء الغنائيين لجودة قريحته في الشعر الموسبقي نجد كلامه كهنوتياً اكثر مما هو أبوي وحماسياً اكثر مما هو موسبقي . وفي هذا الدور الثاني من أدوار العمران ظهر المؤرخون وجمعوا الآثار وأرخوا القرون ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستلزم محو الشعر من الوجود بل استمر التاريخ حماسةً وكان المؤرخ هيرودوس كأنه هوميروس ثانٍ . ومن نظر في روايات التراجيديا القديمة التي الفها شعراء اليونان ومثلوها على مراسحهم تبينت له جلياً أساليب شعر الحماسة ورأى علوهم في كل شيء وتجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفخامة . فالاشخاص الممثلة في هذه الروايات هم من الجبارين وانصاف الآلهة والآلهة . ومواضيع الروايات احلام وهواتف ومقدرات والواحها تعداد نفوس وتشييع جنازات وحروب وغارات . وما كان ينشده الرواة من الاشعار كان يشدو به الممثلون . ففن التمثيل عند اليونان كان مقتصراً على هذا فقط . وكانوا يبنون مراسحهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء وانما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (امفيتياتر) وموضع التمثيل على الارض في صحن المرسح وهو غاية في السعة والجسامة ويستوعب تمثيل معبد بفنائه وسراي بدوائرها وقصورها وابراجها ومدينة بأسواقها ومعسكر بمهماته وكذا محل المتفرجين يستوعب ثلاثين الف متفرج . مع ان مراسح الاوروبيين لاتستوعب الاربعة آلاف . والمرسح الفرنساوي في باريس لايستوعب الا ١,٤٠٠ ومرسح الاوبره فيها يستوعب ٢,٢٠٠ ومرسح الشاتله وهو اكبر المراسح في باريس يستوعب ٣,٦٠٠ وكان التمثيل عند اليونان يبتدئ في الصباح ولا ينتهي الا في المساء وربما مثل في المرة الواحدة روايتين او اكثر . وكان الممثلون يفخمون اصواتهم

ويعظمون قيافاتهم ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكي الواحد منهم الجبار العنيد او البطل الصنديد الذي يمثل دوره . فيمثل برومته بن تيتان وهو مقيد بالسلاسل فوق جبل قفقاس والنسر يأكل في احشائه . لانه صور من طين الارض على هيئة الانسان ثم أراد ان يأخذ من نار السماء او نورها لينفخ فيه الروح فاغضب الآلهة وجازاه كبيرهم بذلك الجزاء على ما اقترفت يداه . ويمثل أيضاً انتيغون وهي في أعلى الابراج تفتش عن أخيها الذي كان في معسكر الاعداء من الفينيقيين . وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد بأربعمائة سنة وسماها (اديب الملك) ونسج على منوالها الشاعر الفرنساوي فولتير وسمى روايته الفرنساوية بهذا الاسم أيضاً . واديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل أباه وملك على قومه وتزوج بأمه بدون علم منه فلما وقف على حقيقة الامر لم يتحمل هذه المصيبة فقلع عيني نفسه بيديه وخرج من ملكه هاجاً وابنته انتيغون تقود به . ويمثل الممثلون أيضاً على مراسح اليونان مركباً كبيراً ينزل منه خمسون أميرة بما يتبعهن من الخدم والحشم كما في الرواية التي ألفها الشاعر ايشيل قبل الميلاد بخمسة قرون . فكان يجتمع على مراسحهم فخامة البناء مع فخامة الكلام . ويمتزج التاريخ بالدين . وكان اول المضحكين عندهم من الكهان . وكانت العابهم احتفالات دينية ومواسم أهلية . فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من أشعار الحماسة . وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس ورواياتهم مستنتجة من الالياذة والاوذيسة ومواضيع الجميع منها يعود الى محاصرة تروادة

٣٦ — الديانة المسيحية والادب

ثم أخذ هذا الدور الثاني من أدوار الشعر يتقلص ويتعثق كما تعثق العمران القديم . وجاء الرومانيون ونسجوا على منوال اليونانيين ونسخ شاعرهم فيرجيل عن هوميروس وانتهى دور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بظهور الديانة المسيحية . فالديانة الوثنية مادية ظاهرية والديانة المسيحية روحانية باطنية . فلما حلت احداهما محل الاخرى ودخل الايمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله ووضع في

جنازته المتمنة جرثومة التمدن الحديث وثبت بتعاليمه دعائم الاخلاق . واول حقيقة جاء بها هذا الدين هي القول بوجود حياتين للانسان . احداهما فانية واثانية خالدة . احداهما على الارض واثانية في السماء . وأعلم الانسان بانه مركب من حيوانية ونطق اي من جسد ونفس . وبأنه نقطة الفصل المشترك . وهو في علم الهندسة النقطة المشتركة بين خطين والخط المشترك بين سطحين والسطح المشترك بين جسمين . او بأنه الحلقة المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات احداها تتألف من الماديات والثانية من الروحانيات . احداهما تبتدي من الجماد وترتقي للانسان . والثانية تبتدى من الانسان وتصعد الى الله

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئاً من هذه الحقائق ولكن أول من أوضحها وجلاها الانجيل الشريف . فأصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عشواء وساروا في ظلام الليل على غير هدى ولم يفرقوا في طريقهم بين الحق والباطل . والبعض من فلاسفتهم افاض من نبراس حكمته على الاشياء نوراً طفيفاً لم يضئ منها الا الجانب الاصغر وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الاكبر . فنشأ من ذلك جميع تلك الاشباح والخيالات التي وردت في فلسفة المتقدمين واساطيرهم . لان اضاءة تلك الاشياء بتمامها لا يتيسر الا بنور الحكمة الالهية . فلما جاء امر الله قام النور الالهي مقام هاتيك الانوار المرتجة التي أتت بها الحكمة الانسانية . وكان فيثاغورس وبقراط وسقراط وافلاطون سرج الليل فجاء المسيح بن مريم (عليهما السلام) ضوءاً للنهار . فحيث كانت عبادة الاوثان ديانة مادية لم يخطر على بال الاقدمين التفريق بين الروح والجسد كما في الديانة المسيحية . بل اوجدوا شكلاً وهيئة غير الماديات وشخصوا المعنويات . فكل شيء عندهم مرئي محسوس متجسد . وآلهتهم مفتقرون لسحابة يختفون فيها عن الابصار . فهم يأكلون ويشربون وينامون . وتصيبهم الجراح فتسيل منهم الدماء . ويلقى بهم من السماء الى الارض فيتحطمون كما حدث لفولكين اله النار حينما حملت به أمه من (جوبيتر) المشتري كبير الآلهة ووضعته في أشنع صورة فاستنكفت منه ان يكون ابنها ورمت به الى الارض فهبط على جزيرة ليمن

من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رجله . وذهب ابركان اتنا ووضع فيه كور الحديد . فهو يعرج من وقعته و يشتغل في صنعته ابد الابدين ودهر الداهرين . ومن هولاء المعبودات ما هم آلهة ومنهم ما هم أنصاف آلهة فقط . ودنياهم مملكة بسلسلة من الذهب يمسكها كبير الالهة . وشمسهم يجرها في مركبه اربع رؤوس من جياد الخيل . وجهنمهم هاوية عميقة يعين الجغرافيون فوهتها على سطح الكرة . وجنتهم على جبل اوليمبوس في تساليا يسكنها الالهة و يتلذذون بنعيمها . فالديانة الوثنية عجنت جميع المفتريات من اساطيرها في طينة واحدة وصغرت آلهتها وكبرت اوادمها حتى تشابه الفاني بالحي الذي لا يموت . فالابطال الذين تكلم عنهم هوميروس في اشعاره كادوا يكونون أقرانا للمعبودين . فأبوا الفوارس اجاكس غضب على جوبيتر وهو راجع من محاربة تروادة واعلن الحرب عليه وعلى جماعته . واشيل عنترة الحروب اليونانية يضاهي في القوة والشجاعة المريخ (مارس) له الحرب وجلاد الفلك . بخلاف الدين المسيحي فأنه فرق بين المادة والروح . وحفر واديا عميقا بين الجسد والنفس ووادياً آخر بين الانسان والاله . فبظهور النصرانية و بنشر تعاليمها دخل قلب الناس شعور جديد لم يكن معروفاً للمتقدمين واتسعت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين اتساعاً غريباً : فهذا الشعور هو الميلنخوليا اي السوداء وهي أشد من الوقار المستولي على قلوب القدماء وأخف من الحزن . فالنصرانية وضعت في طبع المتدينين بها المزاج السوداوي وجعلت الصلاة للفقير كالغنى للغني وأسست بين الناس المساواة والشفقة والحرية . فمنذ أدخل الانجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة اصبح المتمسكون به يرون الاشياء بشكل جديد

وعدا هذا ففي التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث في العالم انقلاب كبير لم يتيسر معه ان لا يحصل انقلاب في العقول . لان الانقلابات التي حدثت قبل ذاك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة وقيام أخرى ولم يكن لذلك تأثير كبير في قلوب العموم . بل المصيبة الحاصلة من تلك الانقلابات كانت كالصاعقة لا تصيب الا الاماكن العالية والمقامات المرتفعة فعبروا عنها باشعار الحماسة .

ففي الاجتماع الانساني القديم كان الفرد سافلاً حتى كانت المصائب لا تؤثر عليه الا اذا نزلت بيته وأصابت أهله . ولا يعرف الواحد من أهل تلك القرون الخالية البؤس ولا التعاسة خارج الآلام البيتية . ولا كان يُسمع في تلك الاجيال بأن المصائب العمومية الحادثة في المملكة تمس المعيشة الفردية . فلما حدثت تلك الانقلابات الكبيرة إبان انتشار الديانة المسيحية وأصبحت الامم الاوروبية في هرج ومرج يتلاطمون كالامواج في البحر العجاج وانقرض التمدن القديم باستيلاء الاقوام البربرية على ممالك الرومان حدث من ذلك تأثير في قلوب العامة وانفعال في نفس كل فرد من افرادهم . وأخذوا يفكرون في مصائب الدهر ومرارة الحياة وعرفوا بأن هذه الدنيا الفانية ما هي الا هزل ولعب وكدر وتعب لا ينبغي للعاقل ان يغتر بها . فهذا الشعور الذي ولد اليأس في قلوب المشركين كما علم من حال الاديب الروماني قاتون ، ولد في قلوب المتنصرين الملانخوليا وهي السوداء

وفي ذلك التاريخ أيضاً تولد فكر التجسس والاختبار . لان تلك الوقائع العظيمة كانت أشبه برواية كبيرة مثلت على مرسح الدنيا وشهد المتفرجون عواقبها المدهشة . فهذه الوقائع عبارة عن وثبة وثبها الشمال على الجنوب وتغيير بسببها شكل العالم الروماني . فأصبح يقاسي نزاع الموت وبلغت روحه التراقي . فلما مات هذا العالم قام جمهور من النحويين والبيانيين والسفسطائيين ينقاتلون على جنازته ويقلبون جسده الذي لا حراك به . ويشرحون ويفسرون ويبرون ويحللون ويناقشون ويجادلون كانهم ذباب يتساقط على جيفة التمدن القديم . فمن سعادة هؤلاء المشرحين للعقول وحسن حظهم انهم وجدوا جيفة يجرون عليها اول تجاربهم ويسبرون قروحها بمسبارهم . فكان اول جسد شرحوه جسد امة ميتة

وعلى هذا الوجه نرى الآن ظهور جنية الملانخوليا والتفكر بجانب عفريت التحليل والتضاد . ونجد في أحد طرفي هذا الدور الانتقالي البياني الشهير لونجين (٢١٠ — ٢٧٣ م) ولد في حمص من سوريا والف باليونانية في علم البيان رسالة الاعجاز التي ترجمها بوالو للفرنساوية . ونجد في الطرف الآخر القديس اوغوستين (٣٥٤ —

٤٣٠ م) صاحب المؤلفات اللاتينية . فجميع أدباء القرون الوسطى استقوا افانين العلم والادب من حياض الروم في القسطنطينية . ولا يجوز لنا احتقار هذا الدور الانتقالي من أدوار الادب لان فيه النطفة التي تخلقت وولدت وكبرت حتى صارت عروساً تتمتع اليوم ببديع جمالها . فكتبة ذاك الدور — ونرجو هضم هذا التعبير الحر مع انهُ سوقي مبتذل — زبلوا رياض الادب ليجتني المتأخرون ثمارها

فحيث كان هناك دين جديد وأمة جديدة اقتضى ان ينشأ على هذين الاساسين أبنية جديدة في الشعر . لان شعر المتقدمين كان حماسة صرفاً وبسبب تأثير الدين الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لا يدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها الا وجهاً واحداً وهو وجه الجمال . وينبذون وراء ظهورهم جميع مالا علاقة له بشيء من نموذج الجمال بدون ان تأخذهم رأفة على صناعة الادب المقتضى لها تقليد ما في الطبيعة من خير أو شر . فهذه الطريقة كانت في بادئ أمرها معتبرة . ولكن باضطرادها على قياس واحد زال رونقها وذهبت طلاوتها ونقصت قيمتها كما هو شأن كل ما اضطرد على وتيرة واحدة . فلما ظهر الدين المسيحي جرّ الشعر الى الحقيقة ووضعه في مكانه . وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بعين أوسع وأرق مما كانت تراها قريحة الشاعر الوثني . فشعرت هذه القريحة الجديدة بأن المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الانسان بل الشنيع منها بجانب الجميل والمستطرف بقرب المستقبح والشر اكثر من الخير والظلام سابق النور والجد مخلوط بالهزل وكلام السخرية وراء الاعجاز بالفصاحة . فقالت القريحة في نفسها :

أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية ؟

أبلغ من حد الشاعر ان يقوّم ما اعوجّ على زعمه من خلق الله ؟

وهل الابتر والاجدع والاجذم أجمل من كامل الاعضاء ؟

وهل يحق لصناعة الادب ان تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الانسانية والحياة والمخلوقات ؟

وهل يجوز نزع عضلة من الجسم او لولب من الدولاب ان أريد انتظام دورانه ؟

وهل من الواجب على المطرب ان لا يعرب ؟

ثم نظرت هذه القريحة الجديدة في وقائع العالم فوجدتها مضحكةً مرهبةً معاً واعتراها المزاج السوداوي بسبب الاعتقاد المسيحي وأثر عليها أيضاً الانتقاد الفلسفي المستفاد من ذاك الدور الانتقالي فحطت في الادب خطوة كبرى زلزلت بها العالم العقلي وقلبت عاليه سافلة وحذت في الشعر حذو الطبيعة وخلطت في اختلاق المعاني النور مع الظلام وكلام السخرية مع الاعجاز بالفصاحة بدون ان تمزج أحدهما بالثاني . و بتعبير آخر جمعت في الشعر بين النفس والجسد و بين الحيوانية والنطق . لان الشعر والدين متلازمان والنقطة التي يسير منها أحدهما يسير منها الآخر . فأوجدت في الشعر نموذجاً جديداً وأسلوباً غريباً بالنظر للمتقدمين . وشرطت فيه شرطاً قلب شكله وأصلح قالبه . فهذا النموذج وهذا الشرط هو كلام السخرية الذي يظهر في قالب الكوميدية . فهذا هو الفرق الذي يفرق في نظرنا بين صناعة الادب الجديدة وصناعة الادب القديمة وبين الشكل الجديد الحي والشكل القديم الميت . او بتعبير اشهر من هذا ولو كان مبهماً هذا هو الفرق بين ادب الطريقة الرومانية وادب الطريقة المدرسية

فيقول لنا حينئذ اهل الطريقة المدرسية :

ــ ها نحن أمسكناكم واخذناكم بالسنتكم . انتم تتخذون من القبيح نموذجاً للتقليد ومن كلام السخرية اسلوباً لصناعة الادب ؟؟؟ ولكن اين اللطافة في ذلك اين حسن الذوق ؟ اما تدرون ان صناعة الادب ينبغي لها ان تقوّم ما اعوج من الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الواجب عليها اعلاء شأن الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الاجدر بها انتخاب الاحسن مما في الطبيعة ؟ هل ادخل المتقدمون القبيح او السخرية في كلامهم ؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا ؟ فاتبعوا يا سادة اساليب المتقدمين واقتفوا في فنون الادب اثر ارسطو و بوالو ولاهارب ..... الخ

ــ وفي الواقع ان حجج اهل الطريقة المدرسية دامغة . ولكن لسنا مكلفين بالرد عليهم لاننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالعقل كما قيدوه . اذ حسبنا

الله من القواعد . . وانما نحن حققنا وجود امر . فنحن مؤرخون واسنا منتقدين ولا مشرعين . فهذا الامر موجود سواء اعجبهم اولم يعجبهم . ففريحة الشعر الجديد تولدت من انضمام نموذج السخرية بالكلام الى نموذج الاعجاز بالفصاحة . وهي غزيرة المنبع في ابتكاراتها مختلفة الاشكال في تصويراتها . بخلاف الشعر القديم فانه وحيد الشكل وحيد الاسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة . فهذا هو الفرق الحقيقي والاساسي بين ادب الطرفتين الرومانية والمدرسية

نعم ان المتقدمين لم يجهلوا بالكلية حقيقة الكوميديا ولا السخرية التي نحن بصددها اذ لا بد لكل شيء من اصل . وجرثومة الدور الثاني لا بد ان تكون في الدور السابق عليه . ففي الايلياذة كل من (فولكين) و(نيرسيت) نموذج لهذه السخرية والكوميديا . والاول مثال الآلهة وقد مر ذكر السبب في عرجه وليس على اعرج من حرج . والثاني مثل للبشر ووصف هوميروس في الفصل الثاني من الايلياذة هذره في المنطق وهذيانه في الكلام وبين كثرة جلبته واستهزائه بجميع الناس حتى بالملوك . فكان في محاربة تروادة مضحكة اليونان يسخر بهم ويسخرون منه لان فيه جميع النقائص والعيوب . ومن امثلة السخرية ايضاً مكالمة منيلاس مع بواب القصر في رواية (هيلانه) التي نظمها الشاعر اليوناني اوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد .

ومن السخرية أيضاً ما نراه عند اليونان من الاشخاص الخارقة للطبيعة كالذي نصفه الواحد انسان ونصفه الآخر سمكة والذي بعين واحدة في جبهته وعرائس الجن اللواتي يظهرن على الانس كانهن حور الجنان كل واحد من ذلك نموذج للسخرية . غيران ادباء اليونان الاقدمين لم يتمكنوا من ايفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في اشعارحماستهم من الفخامة وما في رواياتهم من العظة والجلالة . فالسخرية في كلامهم ليست في موقعها لانها مستورة بجلالة الشكل الحماسي . واسلوب الحماسة يفوق فيها على أسلوب السخرية ويمنعها من الظهور والبيان . بخلاف الادباء المتأخرين فان أسلوب السخرية له في شعرهم ورواياتهم موقع مهم . وهو في كل موضع من كلامهم . ويصورون بهذا الاسلوب الشناعة والفظاعة من جهة والهزل واللعب من جهة اخرى . ويلحقون به في الدين

الف وسوسة وأباطيل غريبة وفي الشعر الف معنى مبتكر وتصور بديع فأسلوب السخرية هو الذي اوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الانسان والله من عوالم الجن والروح والملك وملؤا بها الهواء والماء والارض والنار فلم يبق محل في الفضاء الا وهي ساكنة فيه . ومنها من هو على اكتافنا يكتب أعمالنا ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم ولا يخرج منا الا بالضرب الشديد والتعذيب . وهذه السخرية هي التي جعلت لشيطان النصارى قرون التيس وأرجل الخنزير وأجنحة الخفاش وجرت الشاعر دانتي الطلياني وملتون الانكليزي الى تصوير تلك الصور الجهنمية العجيبة ووصفها بالاوصاف الهائلة والاشكال المخيفة . حتى جاء في القرن السادس عشر المصور الشهير ميكل انجلو ونقش على جدار كنيسة في الفاتيكان الذي يسكنه البابا صورة مفخمة بديعة سماها اليوم الآخر وهو يوم العرض والحساب . ولو قرأ القرآن الكريم لصور جهنم ترمي بشرر كالقصر كانه جماله صفر . ومن أمثلة هذه السخرية أيضاً الخادم الجني ميفستوفلس المرافق لفوست في الرواية المتقدم ذكرها ومنها الساحرات التي مركزهن في رواية ماقبث وأنواع كثيرة من الخدام والرصد القائمين على حفظ الكنوز المخفية والعيون الجارية والاشجار الكبيرة . وكذا الحوت الذي يظهر في البحر كالجزيرة المعشبة والثعابين التي تحاكي في الضخامة الفيلة وتحرق بنفسها كل مخضر ونحو ذلك . فالمتأخرون عبروا عن جميع ماذكر بكلام أفصح وأبلغ من كلام المتقدمين

فأسلوب السخرية ماهو في نظرنا الا ضد قام بجانب أسلوب الاعجاز بالفصاحة ليبرزه ويظهره . لان الاشياء تتميز بضدها . فهو أغزر المنابع التي فتحتها الطبيعة لصناعة الادب ؛ فطريقة المتقدمين أورثت الملل والكلال باضطرادها على نسق واحد ومراعاتها لاسلوب واحد وهو أسلوب الاعجاز . لان الاعجاز على الاعجاز والبلاغة وراء البلاغة والبيان تلو البيان متعب للفكر مجهد للذهن . فاذا فصل بينهما بكلام السخرية تفكه العقل وارتاح مما أجهده واضناه واستأنف السير نحو الاعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل . ثم لايخفى ان الجميل

اذا قرن بالقبيح زاد جماله رونقاً وصفاء وتلألؤاً واعتلاء ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألذ وأشهى من جنان الاليزه التي وصفها هوميروس وفرجيل . لان ميلتون صور تحت جنة عدن جهنما أشد دهشة ونكالاً من (تارتار) المتقدمين . ولو لم يصف لنا دانتي حبس ذاك الجبار العنيد في برج مدينة بيزه وسد باب البرج عليه حتى هلك جوعاً بعد ان اكل أولاده لما وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دو ريمني ولا لجمال بياتريس التي دخلت به جنان النعيم اذ لو لم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الاليم لما كان فيه تلك الحلاوة الرائقة والعذوبة السائغة

ففي شعر المتأخرين الاعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم النصرانية . والسخرية أي الهذر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الانسان . فالنموذج الاول بتجرده من الهذيان وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال والرشاقة والاعتدال والجذب واللطافة والرقة والحلاوة . واخرج من خدور الافكار عرائس مثل جوليت واوفيليه اللتين صاغهما شكسبير في رواية روميو وجوليت ورواية هاملت . ولعلهما تشبهان ليلى التي افتتن بها قيس العامري على عهد الدولة الاموية ولقب لاجلها بمجنون ليلى . وفاطمة التي هام بحبها امرء القيس وقال لها « افاطم مهلا بعض هذا التدلل » . والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب والعلل واتصف بالبشاعة والشناعة والهذيان والانهماك في الشهوات الحيوانية والرذائل الدينية وفي جر المنافع ولو بايقاع المفاسد والجنايات . فهو فسيق ، دني ، شره ، مهذار ، بخيل ، طماع ، مرائي ، مفسد ، مفتن ، قواد ، غدار ، كذاب ، محتال . ويتمثل في صورة باصيل و فيغارو و تارتوف و هار باغون . والاول اسم راهب يحب مسايرة العاشقين على اهوائهم ولكنه كثير الطمع في اموالهم . والثاني اسم خادم نشيط ظريف قواد لسيده اوصله الى معشوقته ومكنه من وصالها بمهارة حيله ودسائسه . وهما من الاشخاص التي اوجدها مارشه في رواية (حلاق اشبيليه) و (زواج فيغارو) ونكت بها على اخلاق المعاصرين من الفرنساويين قبل الانقلاب الكبير اي في عهد لويس السادس عشر والخامس عشر و بين اسرافهم واستهزأ بأفعالهم . وفي سنة ١٨٥٤ اي في عهد الامبراطورية

الثانية انشأ احد الكتبة جريدة هزلية سماها (فيغارو) اشارة الى انها تخدم خدمة فيغارو مع التنكيت والتبكيت وعدم المبالاة بشيء ولا التعصب لامر فاصبحت جريدة الفيغارو اليوم من اعظم الجرائد اليومية في باريس . و(تارتوف) نموذج الرياء وهار باغون نموذج البخل وهما من أشخاص روايات موليير . ويمكن ان يعد من هذا القبيل ايضاً ابو زيد السروجي في وعظه للناس بالمواعظ الحسنة ثم جمعه الفلوس واشترائه اللحم والخمر والجلوس للمنادمة مع غلامه كما هو موضح في مقامات الحريري . فالجميل ليس له الا نموذج واحد والقبيح له الف نموذج لان جمال الجميل ما هو الانسبي بالنظر الى الانسان و باعتبار تركيب اعضائه . والقبيح له نسبة وعلاقة مع غير الانسان فهو جميل بالنسبة الى عموم المخلوقات وقبيح بالنظر للانسان وحده

ففي القرون الوسطى نرى لكلام السخرية موقعاً بجانب الاعجاز بالفصاحة وكثر استعمال السخرية في الادب في الرسم والتصوير والحفر وفي الاخلاق والعادات كالرسوم التي احسن في تصويرها المصور الشهير ميكل انجلو الطلياني والمصور مويلو الاسباني وابدع ما اتت به قريحته الراسمة التي نقش فيها كيفية الصعود الى السماء ثم ظهر شكسبير وصار ملك الشعراء كما قال دانتي عن هوميروس ومزج كلام السخرية بكلام الاعجاز وصاغ منهما الدرام . فشكسبير هو ابو الدرام والدرام هو الخاصة المميزة للدور الثالث من ادوار الشعر والادب العصري وهو جامع للمرهب والمضحك من الكلام اي للكوميديا وللتراجيديا .

٣٦ — الاجمال

فاجمالاً لما تقدم لنا ذكره نقول :

ان الشعر له ثلاثة أدوار وهي الغناء والحماسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من ادوار الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية والغناء يترنم في الازل . والحماسة تحتفل بالتاريخ والدرام يصور حياة الانسان . وخاصة الاول السذاجة . وخاصة الثاني البساطة . وخاصة الثالث الحقيقة . فرواة اليونان — ويسمونهم رايزود وهم

اشبه برواة العرب الذي جاء منهم حماد الراوية وكانوا يطوفون القرى و يروون اشعار بندار وهوميروس وأيشيل — يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنيين أي الناظمين لشعر الاغاني الى الشعراء الحماسيين . والرومانيون اي مؤلفو الرومانات وهي الاقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين الى الشعراء الدراميين . وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون . وبظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ و بيان أسباب الوقائع وعللها

وأشخاص شعر الاغاني عظام الاجسام طوال القامات والاعمار مثل آدم وقابيل وهابيل ونوح . و يدخل في زمرتهم عوج بن عناق . وأشخاص شعر الحماسة من القوم الجبارين وهم أقوياء أشداء . مثل أشيل بطل لحروب اليونانية واستره آلهة العدل وأوريست بن أغا ممنون الذي الف فيه شعراء اليونان رواياتهم ثم جاء فولتر ونسج على منوالها روايته المشهورة باسم اوريست . ويدخل في زمرتهم عنترة بن شداد . وأشخاص الدرام هم بشرٌ على الصورة الحقيقية الانسان مثل هاملت وماقبث وأوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الاسماء . وربما دخل في زمرتهم أبو زيد السروجي في مقامات الحريري والشيخ علي بن منصور الحلبي في رسالة غفران المعري . ومنبع الاغاني الوهم والخيال ومنبع الحماسة العظمة والفخامة ومنبع الدرام الحقيقة . وتتفجر هذه الينابيع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة وهوميروس وشكسبير

فهذه هي أشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي تقلب فيها الانسان والعمران . وهي في ثلاثة ادوار الشباب والكهولة والشيخوخة فسواء نظرنا في أدب أمة على حدتها أو في أدب البشر على وجه العموم فالنتيجة التي نستنتجها من جميع ذلك واحدة . وهي تقدم الشعراء المغنين او الغنائيين وهم الناظمون أشعار الاغاني على الشعراء الحماسيين أي الناظمين شعر الحماسة وتقدم الشعراء الحماسيين على الشعراء الدراميين . ففي فرانسا ما ليرب (١٥٥٥ — ١٦٢٨ م) سابق على شابلين (١٥٩٥ — ١٦٧٤ م) وشابلين سابق على قورنيل (١٦٠٦ — ١٦٨٤ م) والاول هو

الشاعر الغنائي (لبريك) الذي أصلح اللغة الفرنساوية وقال فيه بوالو « وفي النهاية أتى مالبرب » ..... فذهبت مثلاً . وأما الثاني فانتقد عليه بوالو في الشعر وسخر به حتى جعله أعجوبة وهزءا . ويلقب الثالث بأبي التراجيديا وهي الروايات الفاجعات . وكذا الحال عند قدماء اليونان فشاعرهم المسمى (اورفيوس) متقدم على هوميروس . وهوميروس متقدم على (أيشيل) الملقب بأبي التراجيديا اليونانية . وفي كتاب العهد القديم أي التوراة سفر التكوين متقدم على سفر الملوك . وسفر الملوك متقدم على سفر أيوب عليه السلام . واذا نظرنا في أدب البشر على وجه العموم نرى التوراة قبل الالياذة . والالياذة قبل شكسبير

ولا غرو في ذلك فان الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم يبتدئ في الترنم بما يتخيله . ثم يقص مايعمله . ثم يصور مايفتكره . فالدرام بجمعه بين الاوصاف المتضادة كان اوعب للافكار الفلسفية والتصورات العميقة . وكل مافي الطبيعة وما في الحياة ينقلب في هذه الاشكال الثلاثة وهي الغناء والحماسة والدرام . لان كل مافي الوجود يولد و يعمل و يموت . ولو أبيح التعبير عن الحقائق البرهانية بالتخيلات الشعرية لقال الشاعر بلسان الشعر ان الشمس عند طلوعها ترنم بالغناء وعند القائلة أي الظهيرة تفاخرُ بالحماسة وعند الغروب تفجعُ بالمصيبة وهي الدرام . فهذا التعبير هو من باب الشعر وربما كان ضرباً من الجنون . انتهى كلامه ببعض تصرف وزيادة .

ثم شرع صاحب مقدمة كرومويل في الرد على أصحاب الطريقة المدرسية في تقسيمهم الشعر الى الاجناس التي سبق ذكرها في الكلام على بوالو وفي تحديدهم كل جنس منها بالحدود والتعاريف وفي تفريقهم بين التراجيديا والكوميديا . وابطل قولهم بلزوم وحدة الزمان والمكان في الروايات التمثيلية ولم يقبل من وحدانهم الثلاثة الا وحدة العمل . وقد ضربنا صفحاً عن ايراد كلامه في هذه المباحث لعدم التطويل ولان الروايات التمثيلية على مافيها من الفوائد الجليلة في أساليب البلاغة لم تشتهر لهذا الزمان بين المتكلمين بالعربية ولا اعتنى فحول أدبائنا في تأليف الروايات

لا بالنظم ولا بالسجع ولا بالنثر كما فعلت النشئة الجديدة من أدباء اللسان العثماني .

وقد حض فيكتور هوكو في تلك المقدمة على تأليف روايات (الدرام) بالشعر لا بالنثر وقال : بأن بيت الشعر يحيط بالمعنى احاطة الثوب الافرنجي بالبدن ويضيق عليه ويوضحه معاً . ويعطيه شكلاً الف وأدق وأتم من شكل النثر . ويديره علينا كانه نوع من أنواع الاكسير الذي استخرجه الكيميائيون من خمير الذهب وزعموا ان فيه لذةً للشاربين وشفاءً للاجسام من جميع العلل والاسقام . فبيت الشعر على رأي فيكتور هوكو هو القالب الشفاف للمعنى . واذا تلطف الشاعر في نظمه وانشائه اكسب المعنى رونقاً لولا بيت الشعر لمرَّ ذلك المعنى غير ملتفت اليه . فالشعر هو العقدة التي تربط سلك المعاني او المنطقة التي تضم حواشي الهدم على الجسم وتطويه طيات متناسبة بالهندام . والشعر يزيل من الالفاظ ماهو سوقي مبتذل او عامي سخيف ويكسب المعاني حلاوة وطلاوة ورشاقة . سيما اذا اقتصر الشاعر على استعمال الالفاظ المتعارفة بين الناس المتداولة على الالسن . وترك ما كان وحشياً غريباً في اللغة . وعرض فيكتور هوكو بالذاهبين الى ان « أعذب الشعر اكذبه » بقوله ليت شعري ما الذي يضيع من الشعر ان دخلت فيه الطبيعة والحقيقة ؟ وهل تنقص الخمر صفة من أوصافها ان وضعت في أباريق الزجاج وختم عليها ؟ كلا بل تصير رحيقاً معتقة ختامها مسك يتنافس بها المتنافسون . وختم المؤلف مقدمة كرومويل ببيان المقتضى للشاعر من النسج على منوال الطبيعة (لان كل مافي الطبيعة هو في صناعة الشعر) . وان كان الشاعر جيد القريحة فلا حرج عليه في شيء من القواعد وله الحرية المطلقة في التصرف بجميع أفانين الشعر على حسب ما يرتئيه

فهذه خلاصة مقدمة كرومويل الشهيرة بين الادباء على اختلاف لغاتهم وتباين مذاهبهم ومنها يفهم ان الطريقة الرومانية ارجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام واجراس الالفاظ . ولم تلتفت الى زعم اهل الطريقة المدرسية بان زخرف القول من مقتضى الذوق السليم للشاعر . وازالت جميع

الحواجز التي تعرض امام سجية الطبع وتصد الفكر عن تصوّر الحقيقة والطبيعة وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مفروس في جبلة كل منها سواء كان من صفات القبح او صفات الجمال بلا تفريق بينهما . ولذا نكتت بعض الجرائد بقولها على سبيل التقريظ والتبكيت : « فليعش الانكليز والالمان . فلتعش الطبيعة الهمجية الوحشية التي نشاهد جمالها في اشعار فيكتور هوكو واخوانه من أهل الطريقة الرومانية . » أشارة الى ان أساليب هذه الطريقة أول ما ظهرت في أدب الانكليز والالمان كما تقدم بيانه . وعرف بعضهم الروماني اي السالك نهج الطريقة الرومانية « بأنه رجل ابتدأ عقله في الاختلال » .

فمن امعن النظر في المبحث الاخير من تلك المقدمة وجده مطابقاً لما ذكره أئمة البلاغة والادب في لسان العرب كابي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وأمثالهم . ولا حاجة لايراد أقوالهم في هذا الباب فأنها معلومة ومحصلها وجوب نصرة المعنى على اللفظ لان الالفاظ خدم المعاني . قال الباقلاني « والشعر وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه . ويضم اطرافه ونواحيه . فهو اذاً تهذب في بابه . ووفي له جميع أسبابه . لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب » وقول فيكتور هوكو بان الخاصة المميزة لادب الطريقة الرومانية عن غيره هي الجمع بين نموذج السخرية ونموذج الاعجاز بالفصاحه اشبه بقول المتنبي « وبضدها تتميز الاشياء » ولعل السبب الذي حمل المتنبي والمعري على ترك اساليب الجاهلية والنسج على منوال جديد هو الذي ذكره فيكتور هوكو من ان أساليب المتقدمين كانت معتبرة في بادىء امرها ثم باضطرادها على قياس واحد مراعاة للقوانين ثقلت على السمع وملها الطبع وسترى حقيقة ذلك في التعريف الآتي للطريقة الرومانية

اما عدم تعرض فيكتور هوكو لادب العرب كما تعرض لادب الامم الاوروبية ولادب الفارسية العذبة فهو لجهله — سيما في ذلك التاريخ الذي ألف فيه مقدمته — بفصاحة العرب واعجاز القرآن وحضارة الاسلام . فان التمدن العربي لم يدرس حق درسه ليومنا هذا . ولم يزل صاحبنا المستشرق البودابستي العلامة كولدزير يحض

المستشرقين من كل أمة على التعاون والاشتراك في تأليف دائرة للمعارف الاسلامية فان تم هذا المشروع وأُنجزت ترجمة المهم من كتب الادب العربية ربما تيسر بعد ذلك للباحث الاطلاع على كنه العلوم والآداب الاسلامية . ولم يزل المستشرقون يترجمون في الصور بون القرآن الكريم وتفسير البيضاوي ترجمة صحيحة مدققة ولا يكلون في كل سنة اكثر من بضع صحائف ولم يترجم من كلام المعري سوى وريقة فيها نحو مائتي بيت نشرت بالالمانية في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٨٨م . فهم يتقربون من فهم حقيقة الادب العربي رويداً رويداً . وقد رأينا فيما تقدم ان صاحب أغاني رولان يعتقد بأن الاسلام فرع من عبادة الاصنام ويحسب ابولون من جملة اوثان المسلمين . ولو علم فولتير من احوال الشرق ما يعلمه علماء هذا العصر لاستحى من نفسه ومزّق الرواية التي حررها باسم « محمد النبي » عليه السلام وقدمها للبابا بنوا الرابع عشر بعد ان سجد لديه وقبل قدميه [1] . ولما ذهب فيكتور هوكو لاسبانيا رأى آثار العرب في المباني والقصور والقناطر وقدرها حق قدرها ولكنه لم يفهم من الآيات والابيات المنقوشة على جدرانها اكثر مما نفهمه من احرف الصين المنقوشة على البضائع الصينية وسيما على علب الشاي . ولما ظهر رينان وصار شيخ العلماء في عصره درس ادب العرب الاندلسيين من حيث الفلسفة ولخص ما حققه في كتاب سماه « ابن رشد » . فقام اليوم البارون قرا دوفو معلم العربية في الانستيتو الكاثوليكية بباريس ونشر كتابين احدهما « ابن سينا » والثاني « الغزالي » ودرس في الاول ادب العرب وفلسفتهم الشرقية وفي الآخر علومهم الكلامية والالهية فالكتب الثلاثة المذكورة من أحسن ما حرر في هذا الصدد ولكن الموضوع محتاج الى تعميق وتدقيق . ولا يتيسر ذلك الا بعد استخراج الكتب العربية وفهمها . وقد خبط رينان في بعض ماحرره عن الاسلام خبط عشواء وفتح لشارل ميزمر وأمثاله باباً

(١) قدم فولتير روايته المذكورة مع تحرير منه للبابا ختمه بالسجود بين يديه ولثم قدميه وكان ذلك منه رياء فحمله البابا على ظاهره وأجابه عليه بجواب لطيف مؤرخ ١٩ ستمبر سنة ١٧٤٥

للاعتراض عليه . كما ان البارون الكاثوليكي تعصب على ابن سينا والغزالي في ما حرره . ومع هذا قال رينان في الخطاب الذي نشره سنة ١٨٨٣ م « بان اوربا ظلت منحطة في العلم والادب عن العالم الاسلامي وخاضعة فيهما اليه حتى أوائل القرن الثالث عشر . وفيه أخذ العالم المسيحي يرقى درجات العلم والعمران والعالم الاسلامي يهبط في الدرك الاسفل من الجهل وانحطاط الحضارة . واندثرت علوم العرب بعد ما لفحت جراثيم الحياة في جسم العالم اللاتيني الغربي واستمر المترجمون من سنة ١١٣٠ م الى سنة ١١٥٠ يترجمون في مدينة طليطلة كتب العلم من العربية الى اللاتينية وهم تحت حماية الاسقف ريموند . وفي السنين الاولى من القرن الثالث عشر شرعت مدرسة باريس الكلية في تدريس كتب ابن رشد ارسطوطاليس العرب . أما ارتحال البابا سيلفستر الثاني لطلب العلم في أشبيلية وان كان مشكوكاً فيه فقسطنطين الافريقي علامة عصره لا شبهة في أخذه العلم عن المسلمين . » اه وقسطنطين الافريقي الذي يذكره رينان ولد سنة ١٠١٥ م في قرطاجنة وبعد ان حصل علوم الطب والحكمة صار كاتباً لاحد الامرآء ثم دخل سلك الرهبنة في ايطاليا وادخل فيها علوم العرب وله مجموعتان كبيرتان باللاتينية طبعتا في بال سنة ١٥٣٩ م

ودام قول فيكتور هوكو هو المعول عليه في الطريقة الرومانية الى ان اشتهرت الطريقة الطبيعية (ناتوراليزم) في سنة ١٨٦٠ على عهد الامبراطورية الثانية وقام أصحابها يناقشون فيكتور هوكو وشيعته وينتقدون عليهم . على ان الرجل وان ظهرت له معجزات في آيات البيان فهو ليس بنبي ولا تجب له العصمة عن الخطإ والنسيان ومن هو الرجل الذي تحمد كل سجاياه ؟ ومن هو المبرأ من كل عيب ؟ وكفاه نبلاً انه خطا في الادب خطوة الامام ومهد الطريق لمن أتى بعده ولولا ظهور الطريقة الرومانية لما ظهرت الطريقة الطبيعية ولا حصل ارتقاء ونهضة في الادب . ثم ان مقدمة كرومويل وان بحث فيها المؤلف عن تاريخ الادب وبيان الخاصة المميزة لادب الطريقة الرومانية عما سواه فهي احق بأن تكون تعريفاً لنوع الدرام وحده وهو فن من فنون الشعر والادب . وأما التعريف الشامل لجميع ما حرر من

فنون الادب على نهج هذه الطريقة المستحدثة منظوماً كان او منثوراً فهو ما يأتي . اذ من شرط التعريف ان يكون جامعاً للافراد مانعاً من دخول الاغيار فيه . ولا يكفي أن يكون منطبقاً على فرد من الأفراد فقط . وتعريف الطريقة الرومانية تعريفاً جامعاً مانعاً ليس بالامر السهل ولا يتيسر الا بالنظر في الخواص الظاهرة والمشتركة بين جميع فنون الادب المنسوجة على أساليب الطريقة الرومانية والمنشأة في قوالبها

٣٧ — تعريف الطريقة الرومانية

الطريقة الرومانية هي ادبٌ يبحث فيه عن مشاعر النفس وبدائع المخلوقات . وهذا الادب من قسم الشعر الموسيقي او الغنائي الممتاز بخاصته الشخصية كما سبق تعريفه وبيان الفرق بينه وبين شعر الحماسة والدرام . فاذا نظرنا في اعراض النفس نجدها على نوعين احدهما اعراض قائمة بالنفس كالشعور بالحب والرجاء والشعور بالبغض واليأس والشعور بالفرح والطرب والابتهاج او بالحزن والغم والانقباض . . . . والثاني انفعالات تحصل للنفس بواسطة الحواس الخمس وهي البصر والسمع والذوق والشم واللمس . فهذه الحواس منها ماهو حائز على الصفة التمثيلية للعالم كالبصر والسمع وهما بهذه الصفة آلات يبني الانسان بها العالم الخارجي الذي يحمل صورته في نفسه ومنها مالم يحز على هذه الصفة التمثيلية بسهولة وبلا واسطة كبعض الانفعالات العضلية وحاستي الشم والذوق عند اكثر الناس . فأهل الطريقة الرومانية اكتفوا بالتعبير عن النوع الاول وعن القسم الاول فقط من النوع الثاني وصوروا بدائع المخلوقات بصور يخال منها للقارىء أنه يسمع ويرى . كما يتضح لمن طالع وصفاً من أوصاف فيكتور هوكو في مناظر الطبيعة وأصواتها وفي بيان حنين النفس وانفعالاتها . وتركوا التعبير عن القسم الثاني من النوع الثاني أي عن الحواس التي لم تحز الصفة التمثيلية لخلفائهم من المتأخرين وهم أهل الطريقة الطبيعية الذين قادهم أميل زولا . فصور هذا الامام في الادب حقيقة كل ما بحث فيه وتكلم عنه ومثله تمثيلاً حقيقياً وعبر عن حاسة الشم بما كتبه عن الهال وهو سوق الخضر في باريس

وجعل القارىء يشم مافيه من روائح السمك والقديد فضلاً عما يسمعه من جلبة البائعين والمشترين ويراه من السلع والمركبات وانهماك الغادي والبادي في الاخذ والعطاء

ثم اذا نظرنا فيما حرره الشعراء والادباء من أية أمة وفي أيّ لسان نجد منهم من يتكلم عن شعور وتصور . ومنهم الذين يقولون مالا يفعلون وينظمون قصائد الغزل والرثاء وهم لا يشعرون بشيء من الغرام أو التفجع ويمدحون الممدوح قبل معرفته ويصفون الحبيب قبل مشاهدته ويهيمون في ذكر الطلول والرسوم وفي التشبيه بالشمس والقمر والترشيح بكثرة الرماد وطول النجاد حتى يلتبس الامر على السامع فلا يدري هل القائل من أهل القرن الرابع عشر للهجرة أم من الذين مضوا قبل البعثة . فمن شرط السالك نهج الطريقة الرومانية أن يتكلم عن مشاهدة وتصور وشعور واحساس وانفعال وتأثر واعتقاد واقتناع . واذا سمع العاميّ شيئاً من كلامه في الحب مثلاً قال هذا كلام عاشق محروق . والى ذلك أشار ابن رشيق فيما نُقل عنه من كتاب العمدة بأن من بواعث الشعر العشق والانتشاء ومن شروطه الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا المسموع من غناء البلابل وطنين الاوتار . فاهتمامنا بانفعالات الشاعر التي ليست بانفعالاتنا وباحساسه الذي ليس باحساسنا انما هو لكوننا بشراً . والشاعر بشر مثلنا . فبيننا وبينه مشاركة في الطبيعة وفي منبع الحس والانفعال . ويزيد الشاعر عنا باقتداره على الابانة عن المعاني الكامنة في نفسه ونفوسنا . لان له سجية الشعر وملكة راسخة في التعبير عن شعوره واحساسه . ولعل هذا مقصد ابن خلدون في قوله « المعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة . فالذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر . » . قال الفيلسوف الالماني هيكل : « لا تكون شهوات النفس وعواطف القلب من معاني الشعر الا اذا كانت عامة ، متينة ، دائمة . » بحيث يكون الشعر المشتمل على شهوة من شهوات النفس أو عاطفة من عواطف القلب مؤثراً في كل من قرأه أو سمعه . ويكون هذا التأثير دائماً في جميع الازمان

مثل الاياذة والاوذيسة وماها بهاراته وراماياناً المؤلفة قبل الميلاد بقرون كثيرة . ولا يكفي أن يكون الشعر مؤثرًا على فرد أو أفراد معدودة في مجلس أو مجالس محدودة . وقول امرىء القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » يؤثر على جميع الخبيرين بلسان العرب في عصرنا هذا وفي العصور الآتية كما أثر على آبائنا الاولين في العصور الخالية . فالكلام العالي المتين المنسوج على منوال الطريقة الرومانية هو الذي تشخص فيه الانسانية . وتأثيره على السامعين انما هو من جهة عمومه وشموله في تصويره مافي سويداء القلب من العشق والغرام والهموم والاحزان ، وفي وصفه المناظر المبهجة التي في الطبيعة ، و بيان ماها من الاشكال الغريبة البديعة ، وفي استطلاعه حالة الانسان وحظه من هذا العالم على حد قول الشاعر العربي

سبحان من قسم الحظوظ — فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامه

فالسالك نهج الطريقة الرومانية لا يكتفي بقوله لا عتاب ولا ملامه بل يسأل في كل موضع من كلامه من نحن ؟ الى أين ذاهبون ؟ ويفكر في هذا السراج الذي يضيء فينا مدى العمر ثم ينطفىء بالموت . وفي أمر هذه الحياة التي تجري كالسيل ثم تنقطع . فيستفهم عن هذه الانانية المختفية فينا وعن معنى (أنا) ؟ ويقول ما هو هذا الموت الذي يطفىء سراج العمر و يقطع مجرى الحياة ؟ هل هو نهاية أو وقفة أو باب تمرُّ به من برزخ لبرزخ ؟ ماذا يوجد وراء ذلك ؟ والحاصل ماهو السبب ؟ ماهو سبب (أنا) الموجود ؟ ماهو سبب هذا العالم الذي اعكسه في نفسي ؟ فان كان المفكر بما ذكر قادرًا على تأليف شيء موافق لاساليب الطريقة الرومانية فهو يفتش عن هذا الشيء في خفقان قلبه وفي مناظر الطبيعة . فأدب الطريقة الرومانية تشف معانيه عن الخشية الحاصلة لاصحابه مما وراء الطبيعة . وهذه هي الخاصة المميزة له والمظهرة لعظمته واعتلائه . وفي تصويره الاحساس الباطني وتوصيفه مناظر الطبيعة يعطي الانسان فكرًا عن الامر الكلي و يرمزله عن المجهول

فموضوع أدب الطريقة الرومانية هو مجموع هذه الانفعالات الشخصية المختصة

بكل فرد من أفراد الانسان وتلك الشروط الضرورية للمجتمع الانساني . فهذا جلُّ ما يبحث فيه السالكون نهج الطريقة الرومانية . و يبقى عليهم ما ذكرناه في قواعد الطريقة المدرسية من تمام النسبة بين أساس الفكر وشكل التعبير أي فصاحة اللفظ و بلاغة المعنى ووجود الموازنة بين التخيل الشعري و بين التعقل واتباع الصدق والحقيقة في الشعر . فأهل الطريقة الرومانية لا يهتمون لا بالقواعد التي وضعها علم الروح (بسيكولوجي) ولا بالحقائق العلمية . وليس لهم عناية لا بصناعة التفكر ولا بصناعة التعقل . وانما دليلهم في النظم والنثر الاحساس . بخلاف أهل الطريقة المدرسية فان دليلهم في ذلك العقل والذوق السليم . وهذا ما جعل لمؤلفاتهم التي ألفوها في القرن الثامن عشر وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر فائدة وقيمة وندرة . فالطريقة الرومانية تميز عن الطريقة المدرسية بأمرين أحدهما نفي والثاني عكس قضية :

أما النفي فهو عبارة عن حذف القواعد التي أسست عليها المؤلفات الادبية ونفيها عن الادب . وكانت هذه القواعد على ثلاثة أنواع . (١) تعريف كل من الفنون الادبية على حدته كالغزل والمدح والرثاء والهجاء . . . الخ والتفريق بينهما تفريقاً لا اتصال فيه . (٢) وضع قواعد لكل فن من هذه الفنون من شأن هذه القواعد توحيد النموذج وتغليبه على جميع الامزجة المختلفة . (٣) قواعد الذوق وهي التي تعين حداً للشاعر في اختيار أساليب التقليد وكيفيات التعبير وتحصر فكره

وأما عكس القضية فهو عبارة عن العمل بضد ما عمل به أرباب الطريقة المدرسية . فأدب القرن الثامن عشر في جميع أوربا كان على أساليب أدباء الفرنساويين الذين نبغوا في عصر لويس الرابع عشر أي في القرن السابع عشر مثل قورنيل وراسين و بوالو ومولير وهؤلاء نسجوا على منوال المتقدمين من اليونان والرومان واختاروا مواضيعهم من القرون القديمة كما هو الحال في رواية (استير) و (اتالى) و (اندروماق) الخ . وأما أهل الطريقة الرومانية فاتخذوا مواضيعهم من القرون الوسطى والبلاد الاجنبية وتاريخ النصرانية كما هو الحال في رواية

(فوست) و (كليوم تل) وجميع روايات فيكتور هوكو التمثيلية

فالطريقة الرومانية وسمت أولاً دائرة الادب . أو بالحري نقلت هذه الدائرة من مركزها لمركز آخر . ثم مزجت أساليب الفنون الادبية من تراجيديا وكوميديا بعضها ببعض . فنشأ عن ذلك تشويش في بادىء الامر ثم ظهر من هذا التشويش ترتيب جديد . وجاء الادباء بشعر موسيقي وأدب مبهج وتاريخ حي . فالطريقة الرومانية أزالت تلك الاساليب المعينة المحدودة التي من شأنها أن تمنع الشاعر من أن يتصرف فيها بفكره واختياره كما انها أزالت عن السبك والانشاء هاتيك العوائد الاستبدادية التي من خصائصها أن تصفي الهامات الشاعر وترفع منها الغرابة . فبتغييرها أساليب الفنون والقواعد والذوق واللغة والعروض وضعت الادب في قالب غير معين . وساقت أدباء العصر الجديد للتحري بكل حرية على أساليب وقواعد وفنون جديدة . فعثروا أول الامر على قواعد الطريقة الطبيعية وهم الآن شارعون في وضع قواعد للطريقة الانسانية . ويتقربون بذلك الى الكمال شيئاً فشيئاً ويرقون معارج البلاغة درجة فدرجة .

فاذا تأملنا كلام المعري ومن سلك مسلكه من الشعراء نجد فيه اهتماماً زائداً بأمر الآخرة وبما بعد الموت وتفكراً عميقاً في خلق السموات والارض ودهشة مقلقة وحيرة زائدة وانفعالاً نفسانياً واحساساً غريباً . فكأن كلامه يدخل تحت التعريف المتقدم ذكره للطريقة الرومانية . ولكن بسبب فقده حاسة البصر التي لها المكان في هذه الطريقة لم يتيسر له وصف الطبيعة وصفاً لائقاً بها وبفصاحة لسانه . ولا حاجة لايراد مثال من كلام المعري فان كل كلمة من اللزوميات تشعر بهذه الدهشة والخشية والحيرة والانفعال والاحساس والتألم ألماً يهون معه الموت ولا يحسب بجانبه مصيبة . وهذا بخلاف الجاحظ الذي يقول في أول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سببا ، وبين الصدق نسبا ، وحبب اليك التثبت ، وزين في عينك الانصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك

ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الزلة . وما في الجهل من القلة » . فهو بعيد عن القلق والحيرة متثبت في الفكرة . وتأليف الكلام على هذا النمط يسمى طريقة الجاحظ وهي مخالفة لطريقة السجع

وقد تصدى ابن رشيق (٣٩٠ — ٤٦٩ هـ) لما تصدى اليه بوالو ووضع كتاباً في قواعد الشعر سماه العمدة . قال ابن خلدون « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » . فليت شعري هل اطلع على شيء من مؤلفات اليونان في قواعد الادب والبيان كالذي ألفه أرسطوطاليس وترجم شيئاً منه ابن رشد في القرن السادس للهجرة والذي ألفه البياني لونجين الحمصي وترجمه بوالو للفرنساوية وسماه (رسالة الاعجاز) فان أدباء العرب كان لهم عناية بالقواعد الادبية باعتبار انها من جملة المنطق والفلسفة وان لم يعتنوا بأشعار اليونان ورواياتهم التمثيلية . وكان ابن رشيق في القيروان فلما حدثت فيها الفتنة فرّ منها الى جزيرة صقلية ونزل مدينة (مازر) وأقام بها الى أن توفي ودفن بمقبرتها . وكان الافرنج مستولين على بعض الجزيرة والمسلمون في بعضها الآخر . ولعل ذلك كان على عهد رجار الاول (روجر) . ونظن البعوض آذى ابن رشيق أيام فراره ومحنته حتى قال :

يارب لا أقوى على دفع الاذى ... وبك استعنت على الضعيف الموذي
مالي بعثت اليّ ألف بعوضة ... وبعثت واحدة الى نمروذ

وله غير كتاب العمدة أيضاً (الانموذج) وكتاب الشذوذ وهو جامع لشواذ اللغة و (قراضة الذهب) . وقد تصدى لوضع قواعد الشعر وبيان أساليبه كما يفهم من القصيدة الآتية المفردة له وهي أشبه شيء بقصيدة بوالو التي جمعت فأوعت قال :

لعن الله صنعة الشعر ماذا ... من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما ... كان سهلاً للسامعين متينا
ويرون المحال معنىً صحيحاً ... وخسيس الكلام شيئاً ثمينا
يجهلون الصواب منه ولا يد — رون للجهل انهم يجهلونا

فهمُ عند من سوانا يلامو — ن وفي الحق عندنا يعذرونا
انما الشعر ما يناسب في النظم وان كان في الصفات فنونا
فأتى بعضه يشاكل بعضاً وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما تتمنى ولم يكن أويكونا
فتناهى من البيان الى أن كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الالفاظ منه وجوه والمعاني ركبن فيها عيونا
فاذا ما مدحت بالشعر حرًّا رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً وجعلت المديح صدقاً مبينا
وتعليت ما يهجن في السمع وان كان لفظه موزونا
واذا ما عرضته بهجآء عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلت التصريح منه دواء وجعلت التعريض داء دفينا
واذا ما بكيت فيه على الما — ضين يوماً للبين والظاعنينا
حلت دون الاسى وذللت ما كا — ن من الدمع في العيون مصونا
ثم ان كنت عاتباً جئت بالوعـ — ـد وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه حذرًا آمناً عزيزاً مهينا
وأصح القريض ماقارب النظم وان كان واضحاً مستبينا .
فاذا قيل أطمع الناس طرًّا واذا ريم أعجز المعجزينا

فذكر ابن رشيق من صنوف الشعر أو فنونه المدح ، والنسيب ، والهجآء بالتصريح أو بالتعريض ، والرثآء ، وفرقة الاحباب ، والعتاب بالوعد أو بالوعيد . . . . وذكر غيره من هذه الصنوف بكاء الديار وأهلها فقال :

واذا بكيت به الديار وأهلها أجريت للمحزون ماء شؤونه

فبوالو ذكر هذه الاجناس أو الانواع في قصيدته (صناعة الشعر) وزاد عليها التراجيديا والكوميديا والايبوبة وعرف كل نوع منها وجعل له أحكاماً وقواعد كما مر . وتوسع في هذا المبحث حتى تألف من كلامه رسالة مطولة